خولة حواسنية
أكابيلا
ACAPELLA
الجزء الأول
رواية

خولة حواسنية

أكـــابيـــلا

الجزء الأول

رواية

الطبعة الأولى

السداسي الثاني 2017م - 1439هـ

ردمك :978-9931-663-44-7

جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع

العنوان: رقم 11 شارع الاستقلال - باتنة - الجزائر

هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 75 65 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيها التصوير الفوتوغرافي و التسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات , و استرجاعها بدون اذن خطي مسبق من الناشر.

تدقيق : الروائية حنان بركاني

تصميم الغلاف: المصمم زياد مراس

تنسيق و اخراج : خولة حواسنية .

إلى من صنعهم القدر

صنعتهم الصدفة بعد أن أتقنوا جمع أجزائها، وتشكيل جداريتها

إلى الذين عبروا حياتي، إلى المميزين كأحجار السامور

إلى

ضياء أمل خافت، وأدهم مجنون

إلى

صفحات العالم البيضاء، أطفاله ذوي القلوب القطنية

إلى شبابه ووروده بكل الألوان إلى شيوخه

و أحجار الماس

التي صقلها الزمن

كلمة:

لم أجد أقوى من معنى كلمة "حقيقة"، التي يختصرها الصوت بلا موسيقى، لم أجد أعمق من كلمة " الأكابيلا" لأختبر بها معدن الجوهر، ودقّته، لم أجد أصدق منها لتوقيع الحكم النهائي، في أن أقول بصدق عار: جيد سيئ، خير، شر، حلو مر.

أكابيلا الكلمة الوحيدة التي جمعت وجهين من التوافق، ووجهين من التضاد... الكلمة الوحيدة التي استطعت بها الجمع بين الواقع والفنتازيا، بيني وبينكم، بيننا وبينهم، بين كل شيء تعلق بالبشر ولم يتعلق بهم،بين كل ما له وجهين ... كمرآة تعكس أكثر من زاوية، لكنها تحتفظ فقط بوجه وإسقاطه في مركزها.

خولة

روح ضائعة :

أجلس طويلا أتأمل جسدي المتدلي من على شجرة الفلين الضخمة ...يبدو ككيس خاو يلهو به النسيم ...أما حبل الخيش الأصفر الغليظ لازال محكم الالتفاف حول رقبته ..اجتمعت الغربان و اصطفت على أغضان الشجرة بعد أن حامت طويلا معلنة الحداد في السماء تنظر إلي و ترمقني بنظرات حادة كأنها بذلك تهددني و تضمن عدم عودتي إلى ذلك الوعاء ...مرت أيام طويلة ...لم يعد بحوزتي ما يمكن أن أحدد به الوقت سوى انبعاث أشعة الشمس و انكسارها بين أوراق الغابة ثم غروبها ...أخيرا اكتشف الصيادون أمر تلك الجثة ليصحبوها إلى مثواها الأخير,أفكر أنني فعلت الصواب لما اخترت كينونتي بنفسي بين جسد فان و روح ضائعة و ....جاثوم ...وقفت بوجه القدر فضلت ازهاق روحي و إخراجها من جسدها على إزهاق أرواح الكثير من البشر ....كان حبل الخيش حلا وحيدا...

بين الحقيقة المجردة والحقيقة المزيفة

بين الخيال الذي يشبه الواقع، والخيال الذي لا يشبه

إلا نفسه

أكاديلا

صوت عار، حزين، مخيف، تملؤه حشرجة الزيف

(اجتاح الهدوء نصف حياتي، و الصمت هو ذلك الكلام البليغ الذي لا يسمعه أحد، وقلّما يفهمه سامعه، بل قلّما يسمعه.

كل شيء هنا أصابته نوبة سكون، صباحاتي، مساءاتي،بيتي بجدرانه الكئيبة الباكية والفناء الذي يجمع غرفه كلها، تماما كما تحضن أم أطفالها دفعة واحدة. حتى النافورة الصغيرة جف ماؤها،هكذا حلت فجأة لعنة الموت، لعنة الصمت... قاطعتنا عصافير الدوري ولم تعد تزورنا بعد وفاة أبي "السلطان "كما انقطع الحمام أيضا عن زيارة النافورة بعد وفاة أخي "موسى" ... ما عاد هناك من يستقطبها بفتات الخبز وما عاد هناك من يسقيها ويحضر لها كؤوسا من الماء تكفي رؤوسها الصغيرة ....

تغير كل شيء

"عفاف "تحول صوتها إلى همس خافت لا يخرج إلا لضرورة، عكس ما كان وقت مضى ينضح أملا، يشرق فوضى، حيا تلونه ألوان البهجة والسعادة... أما كاترينة، فقد احتجزتها هالة من حزن، فلم نعد نسمع كلماتها إلا نادرا.إما لسؤال "عفاف" عن حالها وإما لتوصيتي بمستلزمات البيت كل صباح على طاولة الفطور، الطاولة التي تعرت كراسيها منذ رحل رجلين بجسدهما وظلت حركتهما، طيفهما هنا...أو هكذا يخيل إلي على الأقل...

لا أظنني أبالغ في وصف الشكل الذي تحولت إليه حياتي أبدا...أصبحت ساكنة، بكماء بلا روح وتقريبا بلا جسد، يحدث للحياة أن تموت...

حياة بلا حياة، إلا لما يعلو صخب الموسيقى ممتزجا بصوت ضحكات متدرباتي بقاعة الرياضة حيث أزاول عملي، تأتي الواحدة منهن إلى الصالة لسبب واحد ظاهر، وبديهي ...العناية بأجسادهن ونحتها لإرضاء أذواق أزواجهن ...

يرددن عبثا مقولة " العقل السليم في الجسم السليم "، يغرقنها في ضحك ساخر، بينما هناك دائما سؤال مبكٍ لا يجيب عنه أحد:" وماذا إن لم يتوفر ذلك العقل السليم،ما جدوى الحفاظ على سلامة الجسم؟وماذا عن الروح، الروح السليمة من يعمل لأجلها، ويسعى إليها؟"

سأكتب على الورق وأمزقه كما هي العادة.... كلمات تشبه غبار ذاكرة عالقة مصيرها سلة مهملات ثم قمامة ثم مراكز إعادة تدوير ورق، ثم حمام ثم مصارف قذرة ... التفكير في كل هذا مرهق لكنه واجب!

(ميسو ن)

أمزق الورقة وأفصلها عن دفتري الصغير، أعجنها بين يدي إلى أن تتحول إلى كرة صغيرة، ثم أقذفها كسابقاتها نحو السلة الصغيرة في الزاوية، عبثا أحاول التنفيس عن خاطري بأوراق بيضاء وقلم، كلما احتجت عناقا عانقت أوراقي...

أعيد القلم الأسود إلى حمالة الأقلام مع أقلام الرصاص و الحبر، أقف محاولة ترتيب الفوضى أو ربما الفوضى تحاول ترتيبي ...أوراق لم أجد بدلا منها لأنفض عن قلبي وزر الذكريات العالقة التي تأبى الانفصال عني، لا أدري أذكريات هي أم آثار مأساة قلبت حياتي و حياة كاترينة و عفاف و شتت العائلة التي سقيناها حبا طوال سنين ليتأخر موسم الفرح، و لتموت سريعا نبتة الحياة التي أفرطنا في سقيها....

و الآن تتحول الذكريات الجميلة فجأة إلى ملح تستهويه جراح صدورنا، والاختناق سبيلنا أمام الرغبة في الصراخ...أقرر الخروج بحثا عن بعض الهواء النقي أغسل به صدري، أريحه مؤقتا كما يريح مخدر موضعي مكان الجرح، هواء نقي أمام البحر أفضل من سيجارة محترقة ...أفضل من حبة مهلوسة ...أفضل من بودرة مخدرات ...أخبروا المدمنين و المدخنين أن يجربوا هواء بحر سيدي بوسعيد ... حتما سيدمنونه!

****

أخرج...

أمر بجانب البيوت البيضاء المنقوعة في زرقة،تزينها الورود المتدلية على شرفاتها، وجدرانها...عجبا !! لم تعد تذكرني بالحياة، بل لم تعد تعني لي شيئا، لا أرى فيها أملا، حتى وجوه الجيران و "الكبابيس[1]"و المشمومات[2]" أعلى آذان شيوخ الحومة و خيوط الحياة التي تنزلق على وجوههم أصبحت لا تعني لي شيئا، وما عادت رائحة الفطير[3] و الشاي كل صباح تغريني، أو تشعرني بالانتماء لهم...

آخذ نفسا عميقا...

قبل أن تنفتح على مضض جراح دفينة، أحاول عبثا طمرها في جوفي، وإخماد حرائقها، إنها تتفتح كلما مررت بأزقة هذه الحومة، بأقواس مداخلها ...

---

[1] الكبابيس: ج كبوس و يسمى شاشية أيضا و هي عبارة عن قبعة حمراء تمثل أحد أجزاء اللباس التقليدي الرجالي التونسي

[2] المشمومات : زهور الفل أو الياسمين تسمى في تونس بالمشمومة تتميز ببياضها الناصع و عطرها الفواح

[3] الفطير: تحلية تقليدية تونسية كما أنها تميز الجزائر أيضا و بقية بلدان المغرب العربي

الأقواس ذاتها التي شهدت على موت أخي «موسى" دون أن تتزعزع، عاشت حادثة شق صدره بسكين أحد رجال "الطلياني"، التي أردته صريعا دون أن يصيبها صرع... من يومها ماتزال عفاف غارقة في دوامة صمت مطبق، ماتزال تحتفظ بذنب اللحظة الكبرى وتحمل نفسها *دم موسى*... ماتزال مخاصمة نفسها متوافقة فقط مع لحظات الضياع الكبرى.

لم يكن ذنبك أبدا أختاه !! لم يكن ذنبك أبدا

لم ننس بعد أهل الحومة، شيطانيتهم، شهادة زورهم، عبوديتهم، وذلهم، حريتهم يتحكم بها "الطلياني" الذي يمشي في زنيقاتها[4]متكبرا قائلا "أنا ربكم الأعلى". يومها لم يجرؤ أحد على إخبار رجال الأمن أن القاتل هو أحد رجاله...رغم توسلاتنا، رغم بكائنا، رغم ضعفنا ...لم يشهد منهم أحد! لم ينصرنا أحد!

"موسى " محام، كم لهث خلف المشاكل والأوراق، كم لبس جبته السوداءووقف في المحاكم مدافعا عن الحقوق، مسقطا الظلم،والآن بعد كل ما بذله في سبيل الآخرين لم يجد رجلا واحدا يقول في شأنه كلمة حق.

أذكر... أنه و الطلياني كانا صديقين في فترة معينة، لكن وتين الصداقة سرعان ما انقطع فاختلفت الوجهتين، اختار الطلياني وجهة البلطجة و النصب، بينما فضل أخي التشبث بعمله كمحام و لم يأبه لإدارة ما تركه لنا السلطان من مال أو استثماره... "الطلياني"...هنا في تونس كل من يطلق عليه لقب"الطلياني" لا ينتهج لنفسه مذهب "دونات"[5] أو "أوغستين"[6] لكنه ينتهج مذهب "لا كوسا نوسترا"[7] و فكرة البقاء للمحتال الأقوى. موسى و "أمين الطلياني" كانا وجهين مختلفين لعملة الحياة في قلب الحومة، إذا ظهر أحدهما وجب على الثاني الاختفاء وفي حومتنا كان أخي الوجه الجيد الذي قدر له أن يختفي إلى الأبد. لقد طاردته لعنة الرحيل إلى الأبد منذ قال *لا* في وجه الطلياني، منذ رفض طلب ارتباطه بأختي عفاف، لقد واجهه موسى برفض مطلق كما كان سيفعل أبي السلطان لو كان حيا، ولو وافق عليه موسى لعارضته أمي "كاترينة المالطية"كما سماها أهل الحي...

---

[4]الزنيقة : كلمة عامية يعني بها سكان المغرب العربي الممرات الضيقة التي تميز الأحياء الشعبية

[5]دونات : أو القس دوناتوس مؤسس المذهب الدوناتي و عرف بأنه من أبرز المفكرين الأمازيغيين الدينيين كما يعتبر من أعظم الزعماء البرابرة الذين واجهوا الطغيان الروماني في شمال افريقيا

[6]أوغستين :كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني ولد في (طاغاست) حاليا سوق أهراس، الجزائر . (يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية .تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني .يعتبره العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص

[7]لاكوسا نوسترا : هي منظمة إجرامية ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر في جزيرة صقلية بإيطاليا .وهي تحالف حر بين عصابات إجرامية تجمعها بنية تنظيمية مشتركة وقواعد سلوكية موحدة.

في الحقيقة الطلياني، لم يكن يرغب في عفاف حبا ولا انبهارا، لكنه لرغبة في كسر شوكة أخي وإهانته قدر المستطاع، بمنطق الغاب كان يتصرف الطلياني وبمنطق القوي والضعيف والأخذ والعطاء، ليس غريبا فعادة من بهم هوس السادية يستمتعون بتقطيع قلوب الغير وشم رائحة دمها... إنها تسعى فقط لإرضاء انحرافات وانجرافات نفسياتها.

لم ولن أنس ذلك اليوم! يوم ملعون ... يوم فجيعتي...

كيف حتى جاء السواد كثيفا يوما؟

يومها، مرت عفاف بالطلياني، متزينة متبهرجة كزهرة بدأت تأخذ في الاتساع بألوانها وتلابيب عطر باذخ تتبعها كالطيف، عيونها المفتوحة عن آخرها، إيقاع مشيتها، أختي لم تكن جميلة فقط، كانت هجينة جزائرية ومالطية أخذت من حلاوة الاثنين معا، ثقافة الاثنين... لم تكن تسلم من معاكسات أولاد الحومة في كل مرة لكنها تتصدى لها بلامبالاة، بنظرة كانت قادرة على أن تميت ذكورتهم وتحييها، بحركة إصبع كان لها أن تكون ملكة عليهم، لكنها كانت تنفض عن ثوبها ادعاءاتهم، كلماتهم المعلبة الجاهزة لكل أنثى.

حين مرت بالطلياني انتفض من كرسيه تاركا شيشته، راسما على وجهه ملامح فرعون:

- لا تتعطري بهذا العطر ولا تلبسي هذا الثوب ثانية فأنت على ذمتي... على ذمة أمين "الطلياني"

- على ذمتك؟

-أنت خطيبتي الآن... ومنذ اليوم، دون أن يكمل جملته قاطعته:

- منذ اليوم!! اسمعوا يا أهل الحومة قال على ذمتي ...لكن أحدا لم يعلمني أنني مخطوبة ... لأمين "الطلياني" ...

أمام ضحكة نسوية مستفزة لامرأة لا تجيد إخفاء مقتها، كما لا تجيد التزام الصمت، وحدها نجحت في إهانة الطلياني هو الذي لم ينجح في رده أحد، رفع ذراعه وصفعها لينتصر لرجولته من امرأة علمته كيف يهان، صفعته لفرط قوتها أسقطتها أرضا لكنها لم تسقط قناعتها بسقطه لذا واصلت استفزازه غير آبهة ...

*أتظن نفسك رجلا ؟!الست سوى ديوث يا أمين ...يا ط..يا ديوث ....

انهال عليها بركلات غيظ، يسترد كرامة رجولته بضربها، كمشهد سينمائي لم يتقدم رجل واحد لينتشلها من تحت قدميه، رغم صياحي و كاترينة رغم استنجادنا بهم...هه لن ألومهم على التزامهم الصمت فهكذا نحن العرب أمام مواقف مماثلة لا نشارك إلا بأضعف الإيمان!! المشاهدة فحسب!

صادف هذا المشهد قدوم "موسى «، الذي انساب جسده بين كم الأجساد التي كانت تتفرج دون حراك أو تعليق، يدفعهم من على جانبيه يسبهم في حركة مجنونة تارة ويطردهم أخرى متوعدا إياهم والطلياني بدفع الثمن كان المشهد مربعا فيه فصل من فصول هول يوم القيامة. مشهرا مسدسه الذي رخصه له القانون بحكم مهنة المحاماة، طلقة... ثم طلقة أخرى. موسى يعتقد أن الرصاص قد يصمت الرذيلة. و يالها من سخرية اليوم حتى القانون يدرك أن من يتولى الدفاع عن الحق كمن يتولى شق الطريق نحو الموت طوعا...لذا اختار أن يقدم له شرف أن لا يموت أعزلا...

ضغط على الزناد مرة أخرى، لكن الرصاصة الثالثة التي خرجت منه أخطأت الهدف وقبل أن تخرج الرابعة غرز أحد كلاب الطلياني سكينا في صدره ...

كأنها القارعة فرار دون وجهة، نحيب وصراخ علا حتى بلغ الذروة ثم تحول إلى صمت مريع تتحرك فيه الشفاه مخرجة الكلمات دون رنين، تتحرك فيه الفجيعة والموت، تحول الضوء إلى ظلام دامس تومض فيه سيارات رجال الشرطة، أما روح أخي خرجت من شق صدره نحو روح أبي في السماء.

كل يوم جمعة نتوجه إلى "موسى" الذي توجه إلى قبره مبكرا، لطالما رددت "كاترينة" أن لا أحد يموت ناقص عمر، الموت يأتي بعد اكتمال، أما اليوم فهي تردد و تقول " سلبوا ابني سنين شبابه" مات مسلوب روح ، مسلوب عمر، و مسلوب حق...مات أخي ولم يشهد أحد من الحومة على أن "الطلياني " كان وراء ذلك، مستعينا بأحد أتباعه، لاحق آخر نفس من أنفاس أخي... ناب ذاك الرجل عن "الطلياني" في إزهاق روح موسى وناب عنه في حمل حكم الجناية غير المكتمل ...غير مكتمل لأن الطلياني بذل جهده حتى يفك أسره، وعمل على أن يشهد أهل الحي لصالحه، وسهر كي يكون الحكم " قتل غير عمدي". ضاع عمر أخي وحقه ثم أغلقت القضية، وفتحت أبواب حرقة الظلم في صدورنا، أبواب الكره، والنقمة.... ابتلعت هذه الذكرى "عفاف "وأغرقتها في الشعور بالذنب وتأنيب الضمير، من زمن جسدها حاضر وروحها ضائعة، حية وميتة في نفس الوقت، أو لربما ماتت و سكنت جسدها الخاوي "عفاف" أخرى مختلفة عنها، فجأة ما عاد "أمين الطلياني" يرغب بها و كلما مررت به سألني ساخرا:

كيف حال المجنونة؟ تاركا خلف سؤاله دخان ضحكة عاهرة تنم عن شر دفين..

أدعي عدم سماعه في كل مرة مواصلة طريقي، أسبه و أسبني في قرارة نفسي تبا له قائد قطيع المنافقين القذر، و تبا لي، لماذا خلقتني يا الله على هذه الشاكلة؟ لماذا ولدت امرأة بلا حيلة؟...

أحيانا كان يمعن باستفزازنا بطريقة أخرى، يقوم بإرسال حاجيات أمام مدخل البيت، فتخرج أمي و تسكب على ما أتى به قنينة المازوت التي صارت ضرورية أثناء اقتناء حاجيات المنزل، تضرم نارا لا توازي حرارة لهيبها، لهيب ألم الفقد... فماذا لو تعلق الفقد بالضنى...و قتلا ...وجورا

أجدني مكبلة بسلاسل الماضي محتجزة في غرفة شرودي، ودون وعي تسوقني قدماي نحو البحر أقف على الكورنيش و أفكر في عتبة بيتنا التي اكتسبت لون الرماد كالذي اكتسبته أيامنا...حتى طيف موسى الذي يلامس وجوهنا كل صباح اتخذ نفس اللون ، يتراءى لي عند هطول المطر بين شتائل الايريس، يحتضن أعمدة وسط الدار و يلهو بماء النافورة...يمسح دموع الأقواس المزركشة بالأزرق والأبيض ...تلك الأقواس التي تنعي فراقه دوما بقطرات ندى تنهمر على طول الأعمدة التي ترتكز عليها ...

يتراءى لي أحيانا أخرى وهو يقبل الأرضية الرخامية التي تعطرت بحب السلطان لكاترينة ...يودع الفوانيس النحاسية في غرفة الضيوف و يضم كتب القانون المرتبة كما يحب على رف مكتب غرفته و برواز صورة له جمعته بخطيبته صفوة...صفوة التي لم ألمح لها أثرا يوم عزائه...الأغرب أنها لم تكلف نفسها رفع سماعة الهاتف لتقديم التعازي
!!!..

ماذا أفعل بكل هذا الفقد، الذي يدخن مزاجي، ويمرّغه في دخانه، ماذا أفعل بهذه الحياة التي نسيت كيف تمشي، كيف تضحك مذ مات أخي...

ماذا أفعل بهذا الملل الذي استفحل في ميولاتي، لا القراءة تشفي ضجري ولا تقديم دروس الأيروبيك يحسن نفسيتي... البحر، إلا البحر كان يتبنى ما ينام في صدري من طاقة تهدر حيويتي، يبتلع حزني، في اتساعه يضيع ضيقي، يشاركني حملي، يستوعب صمتي، عجزي عن مواصلة الحياة وتجاوز تلك اللحظة... ...يضمني إلى صدره الأزرق الكبير و يبث في صدري انكسارات نور الشمس المنعكسة على سطحه....

أذكر قول عفاف لما تدهورت نفسيتي و ساءت جدا بعد وفاة أبي –السلطان- أذكره كما لو أنها تقوله الآن:

السعادة يا ميسون ... بعضها رزق الهي، و بعضها صنيع بشري ...لكن يبقى بإمكاننا تعويض الشق الذي فقدناه منها في اقتطاع تذكرة إلى مدينة الألعاب مثلا... إذا شعرت باليأس أو الحزن أو الملل توجهي هناك يا ميسون، أين يحل الصراخ أين تحل الهستيريا، إنها الأمنة الوحيدة التي يحق لنا أن نعود فيها أطفالا من جديد، سيتسنى لك غزل أحلام تلتف كخيوط السكر حول قصبة غزل

البنات، أما روحك فستشعرين بها أخف من البالونات التي يملؤها الهيليوم يقيد حريتها رجل يضع أنفا أحمر مكورا فوق أنفه الحقيقي ...

سأحاول غدا أن أطبق ما قالته لي ... سأكسر قوقعتي

أعود أدراجي إلى البيت، أدخل إلى غرفتي و أظنني لن أخرج منها مرة أخرى حتى يجيء الصباح التالي...

***

أفتح عيني بعد نوم متضارب، تخللته أحلام بائسة عديدة، تباغت عيوني خيوط الشمس، وانكسارات نسيم بارد تسلل بخفة تحت قميصي كيد خفية تعلمني بقدوم الصباح ...أنهض ...أفتح الخزانة الخشبية على مصراعيها ...و أحاول اختيار لون غير اللون الذي عقد عليّ قرانه منذ زمن ..." الأسود" هذا اللون الذي ارتبط في مفاهيمي باللعنة والحزن والعزاء والموت والرثاء و اللاجدوى... أتأمل قوامي في مرآة خزانتي، تحول لون بشرتي البيضاء إلى أصفر باهت ... هه لابد أن الأنيميا نالت مني بعد انقطاع شهيتي للطعام ...وجب عليّ زيارة طبيب إلى متى سأظل على هذا الحال !!!

أما عيوني التي كان يقول عنها أبي السلطان بلهجته الجزائرية
(عيون زرقا برموش سيوف قتالة كيف عيون الريم)[8]

فقد غرقت داخل رأسي وانتفخت تحتها جيوب سببها الأرق، جفت شفتاي و ما عاد التوتر يصيب أنفي القصير بالعطاس كما في السابق... لفرط ما أسرفت في التوتر انعدم في حياتي الشعور به، لا توتر إذا، ولا غضب ولا عطاس،أما لمعة خصالي فقد بهتت كما فترت لمعتي و تعلقي بالحياة والأمل و المستقبل و ثقتي بالعالم و الحب والناس...

(طرق خفيف على باب الغرفة)

تنتشلني أمي كاترينة بدخلتها من بين ركام الأفكار التي تتقاذفني هنا و هناك، دخلت حاملة بين يديها صينية نحاسية يتوسطها كأس ناس كافيه وصحن معمول[9] صغير ...

-لمحت ضوء الغرفة المتسلل من النافذة، فعرفت أنك مستيقظة

[8] (عيون زرقا برموش سيوف قتالة كيف عيون الريم) : عيون زرقاء برموش كسيوف قاتل مثل عيون الريم – الريم : نوع من الغزلان البرية ذات عيون زرقاء مميزة
[9] المعمول :حلوى تقليدية معروفة في كل أرجاء المغرب العربي

*صباح الخير حبيبتي....(حضن عميق)

تبتسم أمي ككل الأمهات حين تراني أعود لأتمعن في انعكاس قوامي على المرآة تمسح بيديها الدافئتين على صدري ....
-حماك الله يا غزالتي...جمالك فتنة...فتنة قد يفتتن به التقي الورع

قالت هذا وهي تحمل جسدها النحيل المتعب، خارجة وهي تغلق دفتي الباب الخشبي برفق...

"الجمال فتنة قد يفتتن به التقي الورع، فأحمد ربي عليه و هو بذلك نعمة، ولكنه نقمة لمّا يفتتن به مجرم خال من الإنسانية كالطلياني لعنة كالتي وقعت على رأس عفاف، ولم تبرحها إلا بمقتل رجل العائلة."

أحيانا أسأل نفسي أتراه حقا كان مفتونا بعفاف !! وأحيانا أخرى أفكر أنه تذرع بذلك فقط... وأحيانا أخرى أظن أن هناك سرا كبيرا بين الطلياني وأخي موسى، سرا مات بموته ودفن معه، لكن ماذا لو أخبرنا به الطلياني ؟!

...هراء!! محظ هراء !! لا دافع له سوى أنه وحشي حسود، بل هو الحسد عينه...

مشطت شعري وفردت غرتي على جبيني، نثرت لونا زهريا على وجنتي ثم أسدلته على جسدي ...لنتفاءل...ستعود الحياة كما كانت، في الأخير الموت والفقد والمصائب مطبات لا تبطل اكتمال الحياة... سنستمر على آخر نفس كتب لنا.

أين ستكون وجهتي اليوم ؟!

مدينة الألعاب أجل ... مدينة الألعاب ستكون ثاني خطوة تجديد بعد اللون الزهري ...أتوق للصراخ و الانفجار ...أتوق للابتسام... لأخرج الطفلة التي تملأ جسدي، ولأعود أنا...

***

– أخرج إلى الشارع.

الجو دافئ، يحدث ونحن نرتجل طريقا نحو التجديد أن تأخذ الشمس بيدنا إلى مغارة الفرح، يربت الضياء برفق على كتفي، ويراقص خطواتي خطوة خطوة، إلى أن مرت سيارة تاكسي صفراء تميل إلى البرتقالي ككتلة صفار بيض ظريفة متنقلة، أشرت إلى صاحبها بالتوقف طالبة منه أن يوصلني إلى مدينة الألعاب...

***

عجلة كبيرة تلامس السحاب بكابينات مكعبة ملونة تبدو كحلق أذن غجري كبير يداعبه النسيم ...ربما هي أشبه بدورة الحياة، تحملك من منطقة سفلية نحو منطقة علوية، "يقال أننا نجد الحب في أكثر الأمكنة علوا ويقال أن السعادة تمكث قرب السحب و الطيور و أشعة الشمس "...ثم تنزل بك الدائرة الكبيرة من السماء نحو الأرض وتعود بك إلى الواقع مرة أخرى، و تستمر في الاستدارة و الاستدارة واللف، و نحن البشر نستقل كابينات في الدورة تلو الدورة على شكل أيام ...أما الصراخ فإذخرته ليد كبيرة نلتصق بها، نضع أحزمة أمان ترتفع نحو السماء تلتف، ثم تنزل صعودا وهبوطا ليتعالى الصياح الحاد وضحكات ومزيج من الخوف و المتعة و السعادة، الاستمتاع بالخوف له مذاق غريب...كمذاق الشوكولا السويسرية الحارة مثلا...هه أو كاستمتاع لاعب سرك بترويض الأسود...

استنفذت الخمس ألعاب التي تسمح بها هذه التذكرة، و لن يبق لي سوى اقتناء سحابة قطنية كبيرة من غزل البنات و أعود من حيث أتيت.

*****

خرجت تاركة ورائي كما هائلا من الصراخ و شيئا من الضغينة التي كانت تضغط قلبي ...أسلوب عفاف في تحسين المزاج نافع جدا، لكنها رغم ذلك لم تفلح في التخفيف عن نفسها ، مأساتها كمأساة طبيب يعجز عن إيجاد ترياق لنفسه... أعود أدراجي نحو الحومة التي أصبحت تشبه سجنا بسقف مفتوح ...تجاوزت مدخلها الذي يعلمه قوس كبير متجهة نحو بيتنا.... الضبع النتن يجلس على كرسيه كعادته تلتف حوله شيشته كأفعى تتصنع الود...

لا أذكر أنني كنت أكرهه بهذا القدر، كما لا أذكر أنني كرهت شخصا ما من قبل!! ماذا لو لم يفعل بأخي و بنا ما فعل ؟ كنت كرهته!!

لا يوحي منظره بالشر الذي يستوطنه ...أبيض البشرة مفتول العضلات، أسود الشعر و اللحية... أحيانا أود لو كان بمقدوري الدخول إلى جوفه لأحصي كم من أمين و طلياني يسكنها... حاولت المرور دون أن ينتبه إلي لكنني شعرت بعيونه تلاحقني...

*توقفي!!..

-ما الذي تريده!

*لو كان موسى حيا لما تجرأت على القدوم في هذا الوقت المتأخر.. لا أدري ما الذي حدث معي بالضبط، لكن كلامه جعلني أضحك بشدة..

-أحقا ! هل أنت جاد فيما تقول ؟

- اسمعي أريد أن أخبرك بشيء

-اسمع أريد أن أخبرك بشيء ....لو ...لو كان موسى بيننا أو بالأحرى لو تركت موسى يعيش و يحيا بسلام لما تجرأت أنت على توجيه أي حديث إلي ...*أخرجت سكينا سويسريا* إن لم ترحل سأزرعها في صدرك، مباشرة ...

- كل المشكلة تعلقت بسعاد و صفوة ..

-سعاد!

_أدخلي يا ميسون ...أدخلي * نهرتني أمي باقتضاب* يبدو أنها غاضبة جدا...
_أكنت تنوين فتح حديث مع قاتل أخيك ؟ أفعلا كنت تنوين ذلك!

-لم أكن أنوي شيئا...

أجبت ... ثم أغلقت باب غرفتي علي يبدو أن أمي كانت تستمع إلى حديثنا منذ البداية حتما كانت تترقب قدومي.. ترى ما الذي أراد أن يقوله الطلياني؟

كدت ألا أعرفه ليس من عادته التكلم بذلك الهدوء ...مريض بجنون العظمة سمح لكلب من كلابه أن يزج بسكين حادة في صدر أخي ما الذي كان سيقوله لي مثلا؟...أغير ملابسي، و أجمع شعري إلى أعلى كذنب حصان أخرج لإعداد طاولة العشاء مع أمي ...لا أجد إلا عفاف وحدها ترتب الأطباق...

-أين أمي ؟

تستغرق عفاف في صمتها المعتاد و لا ترد!

_عفاف... ميسون (تنادي أمي)

_سنرحل... تجهزهن لأننا سنرحل هذا الأسبوع من هنا ....توقفت عفاف عن ترتيب الطاولة و نحن نتبادل نظرات الحيرة

*لابد أنك تمزحين يا كاترينة أليس كذلك ؟

_أمزح ؟ لا لا يا ميسون، فكرت كثيرا قبل هذا و لا مجال أن نبقى هنا لم يعد لنا مكان هنا...

*تريدين العودة إلى لافاليتا[10] ؟

*لا لا!!

-إلى أين إذن يا أمي؟ ليس لنا مكان غير سيدي بوسعيد [11]ولافاليتا!!

_سنعود إلى بلد أبيكما، لست مرتاحة هنا، كما أني أخشى عليكما من الطلياني، أفتقد الإحساس بالأمان و الطمأنينة، كل شيء يذكرني بحادثة أخيكما ...(تتنفس بعمق)...أنزعج من نظرات الناس ...حتى الذكريات إن كانت حلوة أم مرة باتت مصدر إزعاج بالنسبة لي، لا شك في أنكما قد فهمتما قصدي،... أرغب ببعض الراحة النفسية أواخر عمري ... جلست بضعف، وارتسم على وجهها قلق كثير.

أطال الله في عمرك أمي ...(أضمها بقوة) .

جلست عفاف ..وبصوت متعب ضئيل..

-أوافقك الرأي أمي بالنسبة لي سأكون أينما تكونين ...

حسمت عفاف الأمر، بأن ضمت صوتها لصوت أمي ،افتعلت ذلك كي لا يطول الحديث و النقاش، و يبدو أن عفاف كأمي تماما ضاق بها الحال، و فكرت في هذا من قبل، الهروب بالنسبة لهما راحة، لكن هل يتيح الهروب نعمة النسيان.

"ليس باليد حيلة قامتا بدسي تحت الأمر الواقع..."

أذكر لما قالت كاترينة أن أبي و أخي موسى تركا لنا من المال الوفير، و أن علينا أن نستغل كل ما نملك من حلي فنبيعه و نحوله إلى عملة و نضيفها إلى حساباتنا البنكية، فحسب رأيها كان علينا فعل ذلك تحسبا للضرورة، كأن قلبها أوحى لها بما سيحل بنا... طبقنا ما قالته منذ زمن، و أما أنا

[10] لافاليتا: عاصمة مالطة

[11] سيدي بوسعيد : مدينة تونسية

فلم أترك من تلك المجوهرات سوى أول سلسال أهداني إياه أبي السلطان، و خاتم أهدتني إياه أمي، وأقراط على شكل خامسة ...احتفظت بها أمي لي مذ كنت رضيعة ...

كان أبي كلما أهدانا شيئا من المجوهرات حدثنا عن علاقة النساء بالحلي و حبهن الجم له، كان يقول أن كلما يرضينا نحن النساء هو الذهب ...أ حقا نحن نعشق الذهب و أحجار الماس أكثر من أي شيء ؟أكثر من زوج ! أو ابن! أو أخ ...إذا كان هذا حقا ما تقوله الطبيعة، فلم كل نساء هذا الكون تقدمن أعمارهن قرابينا لأزواجهن و ما نفخ في أرحامهن ؟...لم رضيت نساء كثيرات بضعفهن ؟ لم رضين بزوج خائن و ابن عاق ؟لا بد أن أبي تكلم عن الأمر من منطق آخر ... من زاوية أخرى، و حتما عن تجربة...

انتشلتني من شرودي فكرة الرحيل غدا، فقمت أجمع صحون العشاء و أغسلها، بعد فراغي منها، أحضرت إبريق الشاي الأخضر، أسكب الشاي في الكأس وأرفعه تدريجيا ثم أخفضه، كم أحب تلك الرغوة و منظرها من الفنجان الشفاف، أضيف أوراق نعناع نضرة تتراقص رائحتها ... كأن لهذه الأوراق الخضراء أرواح تتسلل إلى دواخلنا مع ذلك العبق المنعش، تربت على آلامنا في دفء و تطرد المشاعر السيئة...دنوت بصينية الشاي، ووضعتها على المائدة الخشبية التي تجلس بقربها أمي وعفاف بالقرب من زهور الايريس[12]، تضعان أوشحة قطنية تحميهما من لسعات النسيم البارد تجلسان على بساط من صنع يدو ي، و تسندان ظهريهما على المسند[13] المطرز الذي يستند بدوره على الحائط المزركش، تقابله الأقواس و الأعمدة المتشحة بالزرقة و البياض ... في بيتنا أكثر ما أحب الحديث عنه الأقواس والألوان، الأبيض والأزرق، أحب هذا الجو الحميم جدا، هناك عاطفة غريبة تزرعها هذه الهندسة، وهذه الحضارة، كان يستحيل أن أتحدث عن البيت دون حديث عن الأقواس، أو الزرقة كأن السماء هنا تنام، والبحر، والبدر... نرحل؟ و ما الذي سيحل بهذا البيت؟ لمن نتركه؟ من سيعتني بالتيزانة[14] و شجرة الليمون ؟ هل نترك قبري أبي و أخي وراءنا دون رجوع ... تشعر جدراننا باليتم بعدنا كما نشعر نحن بكل هذا الفقد؟

اعتدت الفراق بنيتي !! وآن دوركما، ستتعودان، يقال أن كل شيء يتوقف على التعود، والتعود مرهون فقط بالوقت...

جاء صوتي أمي مباغتا، ملغّما بالشوق لأرض فارقتها منذ سبع وعشرين سنة!

---

[12]الايريس : زهور السوسن متعارف أنه لا يخل منها بيت من بيوت الأحياء الشعبية في جل مدن المغرب العربي .

[13]المسند: قطعة من الأفرشة التقليدية المعروفة في المغرب العربي عبارة عن وسادة طويلة توضع على الأسرة أو المقاعد أو الأرائك ....

[14]التيزانة:

تعودت أمي على الفراق فعلا، إنها تقصد بذلك جدتي، التي اتخذتها عدوة بعد أن اعتنقت الإسلام و طردتها من بيتها وهي ابنة العشرين، حاولت أمي مرات عدة أن تعود و تتقرب منها، لكنها لا تعود إلا بفشل ذريع، جدتي المسيحية الفاتيكانية لا تقبل بابنة مسلمة !!هذا ما حكاه لي أبي السلطان ذات يوم... لابد أن كاترينا تشتاق للافاليتا، للغتها المالطية وذاك المزيج الغريب بين الإيطالية و العربية و الفرنسية، تشتاق أن تناديها أمها، أن تدخل مطبخها، أن تنام وتتحدث وتضحك معها...

لا أصدق أن مفعول الحب قد يجعلك تتخلى عن عاداتك وتقاليدك وأمك التي تمثل كل أهلك، و حتى الديانة التي وجدت نفسك عليها !لكن أبي كان يقول أن أمي اعتنقت الإسلام دينا عن قناعة و تصديق و إيمان، لم يكن يجبرها على فعل أي شيء لا تقتنع به.. لا أجرؤ على أن أوجه لها سؤالا حول هذا الموضوع أخشى دوما أن تظن أنه تشكيك في عقيدتها ...يكفي أن أهل الحومة ينادونها بالمالطية، وينادوننا نحن بأبناء المالطية، كأنهم يعبرون عن عدم اعترافهم بانتمائها و انتمائنا إلى هذه الأرض القديسة المسلمة ....هه... أمي المسيحية سابقا تغطي رأسها بخمار، و تقرأ من كتاب الله كل يوم ....تصلي، تصوم، و تصدق تبادل الجميع الابتسام و الكلمة الطيبة و إن لم يبادلوها و تقول كلمة الحق رغم أنف الجميع ...أما هم ..لا ديانة لهم سوى دين المال و لا مذاهب لهم سوى مذاهب المصلحة، و تكفير فلان وفلان ....

أظن أن أمي محقة !! وجب علينا الرحيل فهم لن يعترفوا بنا مهما أحببنا المكان...

***سأشتاق إلى البحر...**

-ساحل سكيكدة[15] جميل أيضا ولن تشعري بالفرق ...!! أخلدا إلى النوم الآن.

****

بعد مضي أسبوع تحديدا...

قمنا بحزم حقائبنا وظبنا كل ما هو ضروري، وتحتم أن نتخلّى عن الكثير من الأمور الحميمية، كحمالة الكتب التي صنعتها بيدي، كمسجلتي، وحمالة أقراص الموسيقى الوردية ...والتشكيلة الكبيرة لدمى المتريوشكا.... التخلي عن المتريوشكا[16] خاصتي هو الشعور الأسوأ بعد شعور التخلي

---

[15] سكيكدة: مدينة ساحلية جزائرية

[16] ماتريوشكا :عبارة عن دمى خشبية من التقاليد الروسية و هي عبارة عن تشكيلة بحيث يمكن وضع الدمية الصغيرة داخل الدمية الكبيرة .

عن سيدي بوسعيد وبيتي وغرفتي وتونس الخضراء... أختار الأجمل بينها وأدسها في حقيبتي... لحظات جمع الأشياء الصغيرة التي تعني الكثير، كنت كمن يسرق من الحياة حاجياته الثمينة، كمن يسرق من النسيان قدرته...

انه آخر يوم...

لن أتمكن في هذا الوقت الضيق من توديع متدرباتي بصالة الأيروبيك، سأشتاق لهن كثيرا ولثرثرتهن و لغوهن الذي كنت أكره، سأشتاق عفويتهن التي كنت أحب... قبل أسبوع كنت أكره هذه الحومة كثيرا و سكانها و أزقتها الآن يتضح لي العكس، هي جزء مني ومن تاريخي الذي لن أتجرد منه مهما حاولت، ولن يتخلى عنّي مهما حدث، هذه الحومة فقط كانت دليل حب السلطان لكاترينا هنا تزوجها، هنا أنجبنا ومن هنا غادرنا...هنا كان الحب يكبر ولا يزال لولا حادثة موسى...

أخرج إلى وسط البيت أعانق النافورة آخر عناق ...

و السوسن و الياسمين و شجرة الليمون و التيزانة و أزهار الإيريس، المصطفة في إصيص طويل، نظراتي الأخيرة تشبه نظراتها، إنها تبدو حزينة أيضا، وعلى أهبة رحيل، إنها تفكر أيضا في موت بطيء إذ لن يسقيها أحد، لن يهتم بها أحد، لن يغير مكانها أحد، إن لم ينزل مطر لن تعرف طعم الشبع... ستبقى هنا بين طيف أبي وأخي، وبين حنيننا وذاكرانا.

أمي وعفاف تغطيان المفروشات بالأغطية البيضاء كي لا ينال منها الغبار، تبدو تلك الأغطية كالكفن، الهجران والافتقاد كالموت، لا شك ستفتقدنا أماكننا التي اعتادتنا وتموت حتما... أمي تجهز لها كفنها وها هي تغطيها وتغطي ذكرياتنا مع هذا البيت....

مرت ساعات هذا اليوم خاطفة بين تنظيم و تحضير، أدري أنه لن يغمض لي جفن هذه الليلة لذا قررت أن أستغل كل ذرة نسيم بحر لن أجدها في مكان آخر، و أدقق في كل ركن من بيتي أطبع صوره داخل ذهني كي لا أنساه لو يكتب لنا أن لا نعود هنا مجددا... يراودني إحساس اللاعودة ويخيفني...

أشغل مسجلتي على آخر لحن، علني أستنبط منه آخر قصة أكتبها هنا على هذه الطاولة داخل هذه الغرفة لي و في هذا البيت ...ستكون هذه القصة آخر ما أكتب في تونس و سيدي بوسعيد... كم هي سيئة ومرة كلمة "آخر" هذه التي ترافق أفعالي كلها، و أمنياتي كلها...

لحن حزين يليق بليلة كثيف سوادها(أغنية ويسكي لالوباي)

أسند ظهري على كرسي المكتب الخشبي الصغير، محاولة الاندماج مع اللحن و كلمات بايزلي و أليسون ....

(أول يوم شتوي يحل على ستراسبورغ[17]... نسمات الثلج الباردة تمر على الأحياء والشرفات، تصنع طبقات من الضباب على زجاجها ... ألقت نظرة إلى الخارج، الضباب يحجب الرؤية،لم يعد يتضح خط الأفق الذي يفصل السماء عن الأرض ولا ملامح المارة ... كانت تنتظر شيئا ما، أو سماع صوت ما، كصوت عربة الجنود التي تأتي برسائل وتنقل أخرى من الأهالي إلى أبنائهم بالحرب.

انتظرت أن يأتي الجندي وينادي باسمها، وسط الساحة العمومية المقابلة لشرفتها، اعتادت الانتظار- تنتظر دون توفق - الآن أصبح الانتظار رجاء، دعاء لقبول اعتذار أو بالأحرى غفران ذنب أكبر بكثير من الانتظار نفسه.

بعد أن أتى مارك في زيارة ذات يوم، أتى دون أن يخبرها في رسالة سابقة بقدومه، أراد أن يفاجئها ككل مرة، أن يرى إيميلي تركض بدهشة نحوه سعيدة بأجنحة من فرح، وشغف لقضاء ليلة رقص في بار الحي رفقة الجنود مع خطيباتهم وزوجاتهم.

ليمضوا ليال من الفرح و السرور... الأمر يستحق كل هذا ...فهم لازالوا على قيد الحياة....وعلى قيد الحياة لا بد من اقتناص تلك اللحظات.

لكن مخططات مارك ارتطمت بحائط الخيبة، لما قدم و تفاجئ بإيميلي تستقبل دومينيك في بيتها ... يدري مارك أن تواجد دومينيك لم يكن بريئا، ولا إيميلي كانت بريئة، وأن هناك ما لا يرتاح له قلبه، كان يرى ذلك بوضوح، في كل البيت ... كل الأثاث الخشبي، البلاط الأحمر، السقف ... حتى علبة الموسيقى التي أهداها إياها يوم ميلادها قبل عام تشهد أن إيميلي مذنبة ... لم يستطع إشهار السلاح بوجهها، ولا بوجه دومينيك، لم يكن جبانا بقدر ما كان مقهورا...فإيميلي تمكنت من قتله دون سلاح ... تمكنت من إحراقه كما يحترق عقب سيجارة ... مكسور ...

أطالت النظر إلى نفسها في المرآة مسترجعة هذه الذكرى، تشبك خنصرها بخصلة من خصالها الذهبية ... انتفضت على صخب المارة وصوت عربات الجنود .....

ألقت نظرة من الشرفة، وبسرعة خاطفة انتشلت معطفها الأحمر الكشميري، ونزلت بخطى غير متوازنة على الدرج ....

[17] ستراسبورغ: مدينة فرنسية

نزل الجنود الآتين لزيارة ذويهم، وتفرقت الأصوات بين صياح، وبكاء اشتياق وفرح ... لم يكن مارك بينهم،ظلت تقلب وجهها بين الوجوه، تلتف وتدور حول نفسها باحثة في الوجوه عن عينين زرقاوين وابتسامة اشتاقتها ... لكنه لم يكن!

الآن بدأ الإعلان عن أسماء الموتى في الحرب... أول اسم ذكر كان « مارك دوفيل » شخصت إيميلي غير مصدقة ما سمعته صاح الجندي : ألا يوجد أحد من ذويه ؟

اقتربت إيميلي شيئا فشيئا، والجندي يتتبع خطواتها نحوه، خطوات مترنحة ثملة بوقع الخبر...

كيف لمارك أن يرحل دون أن يغفر لها !! قفز الجندي من فوق العربة، أنزل قبعته الخضراء، وأخرج قصاصة من جيب بذلته : هل أنت من ذويه ؟ لم يكن على إيميلي أن تجيب، فهي ليست من ذويه وحسب بل هي جزء من خيبة مارك، ألمه الذي سيرافقه حتى في حياة ما بعد الموت ... كانت الإجابة واضحة جدا ...

فاسترسل الجندي : هذا أخر ما وجدناه في قبضة الفقيد ...

سيدتي لم يمت مارك في الحرب بل فارقنا بعد آخر طلق ناري يخرج من مسدسه نحو رأسه ... "انتحار"

أمضى أياما طويلة في ساحة الحرب يطلب الموت بلا سبب، وليال بين زجاجات الويسكي وقصاصات الورق...

يكتب عليها نفس الجملة هذه آخر قصاصة سيدتي «سأحيها حتى الموت » ربما مارك كان يطلب من زجاجات الويسكي أن تقتلع ذكرى إيميلي، لكنها لم تجد نفعا، ظل طيفها يطارد مخيلته بين صحوه وسكره.
لكنه أخيرا وجد السبيل للتخلص منها، طلق ناري نحو رأسه كان كفيلا بذلك ...انتظرت إيميلي الغفران لكن مارك رحل ولابد أنه غفر دون حاجة للإفصاح عن ذلك ... رجولته بل كرامته المجروحة لن تسمح بذلك سوى على قصاصات الورق « سأحيها حتى الموت »

ابتعد الجندي عن إيميلي وبدأ بالتلاشي بين الضباب، ثم توقف لوهلة واستدار:" سيأتي جثمان مارك غدا رفقة جثمان بقية الجنود، كان مارك محاربا شجاعا" ... ودعها بتحية عسكرية كما ودعها طيف مارك من بعيد، يبتسم ساخرا منها مسترجعا بعضا من كرامته . لا يوجد عقاب أكبر من عقاب الذنب غير المغفور... ورحيل أحدهم دون صفح، لم تصرخ إيميلي ولم تبك، لكنها بقيت كل الليلة جاثية وسط الساحة وكل العيون تراقبها من وراء ستائر الشرفات، مع ذلك لم يواسها أحد كما لم يقترب منها أحد...

الآن هي كالساحرة المذنبة التي تنتظر الاحتراق ... وهاهي تحترق وسط الساحة العمومية على مرأى الجميع .

مضت أيام الشتاء بستراسبورغ، تصفعها تعذبها و إيميلي تحاول ارتشاف آخر قطرات الويسكي في الزجاجات المتناثرة على الأرضية، وفوق السرير، على الدرج وطاولة الحديقة ... على طاولات الحانة الليلية حتى تلك المتناثرة أمام القمامة خطيئة إيميلي تعذبها، ورحيل مارك دون صفح منه يقتلها مئات المرات حتى أنهم لم يسمحوا لها بإلقاء نظرة على وجهه قبل دفنه ... مرت الأيام، تبعتها الأشهر و السنوات و إيميلي ترى مارك في وجه كل رجل، ترى طيفه يبتسم لها ويواسيها،ولا يربت على أكتافها و يضمها إلا عند ذروة الثمالة وراء عشرات الزجاجات من الويسكي وفي الأخير أدركت أن ذكراه لن ترحل إلا بطلق ناري توجهه صوب رأسها.

أطلقت الرصاصة أخيرا... ووجدت إيميلي بين كحلها ووسائدها وزجاجاتها معانقة صورة مارك مكتوب خلفها " سأحبه حتى الموت "

هناك بين تلك القبور واللحود، استقبلتها روح مارك أين نالت إيميلي الصفح أخيرا، في الضفة الأخرى أين يصفح عن الذنوب والخطايا. أين يمكن البدء من جديد كان يكفي فقط شجاعة تلك اللحظة والاستسلام لقوة الطلقة ليتحقق ما أرادت...

لم يقم عزاء لإيميلي، لم يعن موتها أحد، كما لم يثر شفقة أحد ... أما هي فكانت تفكر في أن ذلك كان أسعد يوم بعد حياتها ... لذا موتها لا يجب أن يرفق بمراسم عزاء لأنها ستزف للصفح، لأنها ستشم ريح مارك وستعانقه.

هناك دفنت إيميلي حذو مارك، تحت أنغام برائحة الويسكي يرقصان، هو ببذلته الخضراء وقبعة الحرب وبعض الأوسمة، وهي بثوبها الزهري وخصلاتها الذهبية .)

انتهى....

ويسكي لالوباي[18]...

قال السلطان:" ذات يوم ستنجحين في كتابة رواية جميلة كأهدابك وعيونك"

لم يهتم أحد من عائلتي بقراءة كم الأوراق المكدسة على مكتبي، لم يفكر أحد ولو من باب الفضول تسلّق سطوري سوى "السلطان" ...كنت أجده يتسلل إلى غرفتي حاملا نظاراته العريضة الأقرب

[18] ويسكي لالوباي: القصة مقتبسة من أغنية "ويسكي لالوباي" لبراد بايزلي و أليسون

لأن تكون منظار قبطان في البحرية ...يقلب الأوراق، يتمتم حروفي في نشوة و يبتسم، كأنما ذلك العالم البعيد الذي أتخيله يغريه و يشده ويود لو يبقى فيه إلى جانبي ...بعده ما عاد أحد يهتم لها أو بها... أترك ورقة هذه القصة و حزمة أوراق أخرى هي آخر ما كتبت في هذا البيت هنا على هذه الطاولة ..سأتركها لأبي علّ طيفه يتسلل إلى غرفتي باحثا عني، فكرة الأرواح عالقة دائما في مخيلتي، أؤمن أنه يأتي بين الفينة والأخرى يطمئن إلى عالمي في صمت لا أريده أن يحزن على فراقي لهذا البيت ... أترك له بعضا مني ليبتسم لي كلما جاء و قرأها ويضمني إليه كلما ضمها يرسل إلي بتلات سعادة وهمية في أحلامي، كلما همس اسمي أمامها ..."ميسون"... يستيقظ في قلبي نهر الشوق والحنين.

(قرع خفيف على الباب)...

-ميسون تجهزي سيأتي السائق بعد قليل ...

الوقت قبل الفجر بقليل، أي قبل الرحيل بقليل، بدأ آذان الفجر يعلو شيئا فشيئا جهزت نفسي، حزمت حقيبتي الجلديتين الصغيرتين ورفعت الثالثة على ظهري...

نسيم بارد في الفناء ورذاذ مطر خفيف تبكي سماء سيدي بوسعيد في محاولة أخيرة لإقناعنا بالبقاء، لكن أمي اتخذت قرارا لا رجعة فيه لم يعد في وسعها التحمل أكثر، نظرات الناس إما المشفقة أو الشامتة، ووجود الطلياني الذي هو السبب الرئيسي في موت وحيدها ...والسبب الرئيسي في رحيلنا من هنا.

أتفهمها...!!

أمي وعفاف جاهزتين،تتأملان الفناء تتفحصان البيت، تودعانه. كلنا أحببنا هذا البيت بنفس قدر ذكريات تشاركناها معا، حلوة و مرة تقاسمناها ها هنا في هذا الفناء...أوصدت أمي دفتي الباب الخشبي، على بيتنا وعلى بعض أجزاء أرواحنا وراءه بمفتاح نحاسي كبير...

-السائق ينتظرنا خارج الحومة

هرولت تسبقنا ببضع خطوات، تحت ظلمة الفجر التي تكاد تنجلي، أخيرا خرجنا من بين الأزقة الضيقة إلى الطريق الرئيسية، أين ينتظرنا السائق.

incubus

بحثت طويلا بين الكتب عني! ...

و من أكون ؟

فوجدت بين العناوين عنوانا مناسبا

نصف وجه بلا ملامح!!

أنا نصف وجه بلا ملامح

نصف شر و نصف خير و نصف جاثوم!!

هب نسيم قوي، فتح دفات الشرفة و نفخ الستائر الحليبية ...نسيم لا صوت له و الجو هادئ في الخارج خال من أي رياح، لم يعد ذلك غريبا فلابد أنه صديقي "جوناس"، أتى لزيارتي كما اعتاد أن يفعل مثل هذا اليوم من كل أسبوع...

-أين أنت يا جوناس ؟ تحت السرير ؟ أم داخل الخزانة ؟ أم فوقها!! اظهر الآن...

(همس في أذني)..

- بل إلى جانبك تماما

-تبا لك أفزعتني ألن تتوقف عن تكرار هذا في كل مرة تأتي فيها إلى هنا ؟
-هذا واجبي
-ما جديدك اليوم ؟

*الجديد لهذا اليوم يدعو إلى البهجة، فالحب المنشود يشارف على القدوم كما توقعت تماما..

-أحقا ؟!من قال هذا ؟

*أتذكر تلك المرأة الغريبة صاحبة الملاءة السوداء ؟ تلك التي بقيت أتبعها و أتبعها وأتبعها...
-ثم تحولت إلى قطة سوداء اجتازت بخفة آخر الشارع ...أذكر ذلك ...و اتضح أنها جنية!
*سألتها عنك فقالت أن الذي تنتظره يشارف على القدوم !

-وأنت قمت بتأويل كلامها أنها تقصد حب حياتي !أتساءل حقا عن مقدار ذكائك قبل أن تصبح هذا الشيء!

*أنا طيف ! ...شبح يا سيف ... شبح ..لم هذه العنصرية ألا يجدر الاعتراف بنا و نحن في سنوات الألفينات ؟

-على رسلك جوناس ولا تغضب! في الأخير كلنا مجرد أشياء تدب في هذا الكون ...

* حاولت أن أقابلها مرة أخرى لكن فاجأتني قطة أخرى، قالت أنها كانت تمارس المحظور فتبعها شهاب حارق أنهى وجودها تماما ... فلنتفاءل يا سيف ! متفائل أنك ستنجو يا صاح، أفضل أن أراك طيفا على أن أراك جاثوما قاتلا، لعنة و كتلة شر لا يعلم أصلها حتى الأطياف... لابد أن يكون بحثي صحيحا و لابد أن يكون الحب هو الشيء الوحيد الذي سيقنع جزءك البشري بالاكتفاء بعالم البشر فقط، لكن بعد نجاح الأمر سأفتقدك يا سيف!

-أهز رأسي ...

وسأفتقدك يا صاح سيكون علينا أن نعيش في عالمين مختلفين و سيعود البرزخ[19] كما كان..!

ماذا لو لم تنجح فكرة صديقي جوناس!

الجاثوم.... هم أولئك البشر الذين يمتلكون قدرة الولوج إلى أفكارنا في لحظات الشرود، و التطفل على أحلامنا وما نحدث به أنفسنا، يغريهم الأمر شيئا فشيئا و يلهيهم اكتشاف الحقائق و جمال العالم تحت البنفسجي ... فيدمنون جمال التجربة المختلفة و يصبح التوقف شبه مستحيل ليتحولوا في الأخير إلى كائن مبهم يسمى "جاثوما".

صديقي جوناس ليس جنيا ولا جاثوما، بل هو طيف لطيف يشبه كاسبر في خفته... اكتشفت ظله أثناء ممارساتي لتلك اللعبة التي لم تكن إسقاطا نجميا[20]، ولا نوما مغناطيسيا[21]، ولا حتى عينا ثالثة عين ثالثة! ياله من هراء!

لعبة اكتسبتها دون بحث أو جهد، لم أصادف أحدا غيري بإمكانه القيام بهذا إلى حد الآن على الأقل في سكيكدة، لكن جوناس يقول أن هناك بشر كثر قد ابتلعتهم هذه اللعنة ثم فارقوا عالمهم الأصلي وتحولوا إلى جاثوم كامل قاتل يخنق أجساد البشر النائمة، أو الشاردة، يمسك قلوبهم بين يديه ثم يميتها خوفا و رعبا ...

أناس كثر اختفوا إلى الأبد، لم يعودوا وصنفوا ضمن قائمة المفقودين من بين البشر و أضيفوا إلى قائمة الجاثوم !!

هكذا قال جوناس!!

من قال أن على أرض الجزائر سيوجد بشري في طريق التطور ليصبح جاثوما!! طالما كانت الجزائر أرض الغرائب... أرض القصة... أرض المسرح و الرواية، أرض أبوليوس[22] الحكيم ،وزيتونة

---

[19] البرزخ: الحاجز الذي يفصل عالمنا عن العالم الغيبي

[20] الاسقاط النجمي: هو تفسيرٌ افتراضيّ لحالَةِ الخروجِ من الجسد وذلك بافتراض أنّ هُناك هيئةٌ نجميّة تنفصل عن الجسد الفيزيائي قادرة على السفر خارجه.

[21] النوم المغناطيسي: هو حالة ذهنية هادئة ومسترخية، يستقبل فيها اللاوعي الايحاءات ويستجيب لها بحالة اوسع و في هذه الحالة يكونالعقل الباطن مستجيب بشكل كبير للأقتراحات والإيحاءات.

[22] أبوليوس: أو **لوكيوس أبوليوس** و بالأمازيغية **أفولاي125)** م - 180 م) ترعرع في مداوروش هو كاتب لاتيني وخطيب أمازيغي نوميدي وفيلسوف وعالم طبيعي وكاتب أخلاقي وروائي ومسرحي وملحمي وشاعر غنائي. ولد في حوالي عام 125 م، في مدينة مادور، والتي يطلق عليها اليوم مداوروش في ولاية سوق أهراس، الجزائر .كان يسمي نفسه في مخطوطاته أحيانا " أبوليوس المادوري الأفلاطوني " و" الفيلسوف الأفلاطوني " أحيانا أخرى.يعتبر صاحب أول رواية في التاريخ وتوفى سنة180 م

أوغستين كل شيء متاح هنا أمام باب التاريخ العريض، كل ما نتوقعه موجود، و حتى ما لن يكون في الحسبان موجود مزيج بين حقيقة وخيال معا بين خير وشر، بين نعمة ونقمة، بين خرافة وخرافة، بين جسد وروح، بين صوت وصمت...

ما اكتسبته دون جهد واضح مني أسميته لعبة"أكابيلا"[23]...

كصوت مغن دون موسيقى، لعبة تكشف الأعماق تكشف ما يداريه قناع المثالية، ما تداريه انحناءات بسمات هادئة ... لعبة تجرد الأشياء مما يلفّها وتصوّرها عارية إلا من حقيقة بيضاء... تماما "أكابيلا"

اكتشفت أن بإمكان البلسم أن يكون سما، و أن للسم أن يكون ترياقا، وأن الأبيض قد يكون أسودا، والزهر قد يكون شوكا، و للملاك أن يتحول إلى شيطان !!

نعم يمكن ذلك فحتى إبليس سكن الجنة!!

إبليس !! أو لوسيفر كما يطلق عليه جوناس...

لكن اكتشاف الحقائق والعيش قليلا وسط أحلام الغير، هواية تعرية الحقائق، تجريد الأصوات من المعدلات المرفقة بها، مسح الماكياج من على وجوه الأشخاص والأفكار، والأحلام قد يجعل مني جاثوما!!

ماذا لو كانت تلك هي إرادة القدر؟

ماذا لو حكم علي أن أبتعد عن والدي وكل التفاصيل العادية الجميلة في عالمي! يراهن جوناس أن كل الغرابة التي اجتاحت حياتي فجأة سببها حادثة ما، جعلتني أصطدم بالانعكاس الثاني للوجود، أنا الذي لم أسمع قبل الآن بالانعكاس الثاني للوجود، ولا بالجزء المفارق، ألغاز كثيرة مأهولة بالظلام، واللا معرفة، اكتشافي لهذا الجزء جعلني أتوق إليه، أدمنه وأنجذب إليه، متناسيا هويتي، متناسيا أثر الحبل السري الذي فصل عن جسدي تاركا ختم انتمائي إلى عالم وجب أن أدافع عنه و أتمسك به.

---

[23]أكابيلا: وهو فن استعراض سمعي لا بصري، وهو لون يستغني عن المصاحبة الموسيقية بالآلات ويستعين بدلاً منها بالصوت البشري من كل الطبقات من السوبرانو إلى الباص، وهو لون يشكل تحدياً لألوان الغناء المألوف، ويحتاج إلى دراسة متعمقة لعلم الأصوات البشرية وعلم التأليف الموسيقي «هارموني» و«كونتر بوينت»؛ وذلك لفهم طبيعة ومساحة صوت المؤدي

كان علي أن لا أخوض أكثر فيما اكتشفت أنني أستطيع القيام به، وأن لا أمارس ما أسميته "أكابيلا" ! كان يجب ألا أتورط إلى أن أفقد قدرتي على العودة، كان يجب...كيف أغير كل ما كان؟

لا أذكر متى اكتسبت هذه القدرة بالضبط، لكنني أذكر أول ليلة اكتشفت فيها الأكابيلا خاصتي! في زيارة معتادة لصديقي يوسف، دعوته فيها للعشاء و المبيت.

بعد العشاء قضينا الليلة في السمر و الدندنة على العود في شرفة غرفتي كما اعتدنا دائما ...شرد يوسف وشخص في نقطة وهمية من الفضاء، تحت نغمات العود الهادئة، بقيت متأملا إياه شاردا كجسد انفصلت عنه الروح، أغمضت عيني وغصت فيما يشبه حلم يقظة ...كمشهد فلم مر سريعا...تراءى لي يوسف ممسكا يد الجازية في لحظة حانية جدا، أمام معهد الموسيقى في العاصمة!

شهقت دون وعي ثم رددت مستغربا، الجازية!

رد يوسف فزعا ...كيف؟كيف أدركت أنني أفكر في الجازية! كيف...

-و ما أدراني أنا أنك تفكر في الجازية؟وبعد أن استجمعت أنفاسي استرسلت :

كأنه حلم يقظة، رأيتك تمسك يدها أمام معهد الموسيقى بالعاصمة ...كنتما سعيدين ...سعيدين جدا حتى أنني شعرت بذلك !!

أذكر نظراته في مشدوها مستغربا، الفضول ...الفضول هو ما دفع بنا إلى اكتشاف ذلك معا، كان الأمر في أوله مسليا طريفا، عندما كان متعلقا بتطفلنا على كل ما كان يشرد به زملاؤنا،هواجسهم المنحرفة، أمانيهم البعيدة، مخاوفهم، أكاذيبهم، نفاقهم، حقدهم ،حسدهم، خططهم، ألاعيبهم، مقالبهم، حتى أصبح كل الناس بالنسبة إلي ككتب مفتوحة أستطيع أن أبلغ أعماقهم، وأتطلع على أسرارهم وكل نواياهم...
أضاف فضول يوسف كطالب علم نفس فضولا إلى فضولي فتطور الأمر أكثر فأكثر، وازداد غرابة لما طلب مني أن أجرب هذا مع شخص نائم...

-كانت التجربة الأولى معه...نجح الأمر إلى حد مخيف، الخوف الذي يجعل الفضول يكبر ككائن أسطوري.

أتذكر يا جوناس؟ كان أول يوم لي مع الأحلام، ذاك اليوم الذي اكتشفنا فيه وجودك ورائي ...أكنت تلاحقني؟

*بل كنت خائفا عليك! يجب أن توقف إدمانك على الأكابيلا، حاول أن تفعل و تعالج نفسك بنفسك دون دافع خارجي، أنظر إلي مثلا رغم أنني طيف إلا أنني لم أتطفل على شرودك قبل قليل!

-اعتبر أنني أصدقك يا جوناس!

كان حلم يوسف مخيفا جدا، أو بالأحرى كان كاستعادة ذكرى حادث الدراجة النارية، الذي هوينا فيه معا من الطريق الجبلي إلى السفح بالقرب من واد موسمي، أما يوسف فقد رمت به الدراجة قريبا من الطريق.... تماما كما لو كانت حقيقة، نفس الجو الماطر الملبد بغيوم سوداء، كما لو أن الموت كان قريبا جدا منا، نفس المنظر سوى أنك كنت ظلا قاتما منحنيا كأنه يتأمل جسدي المستلقي قرب الوادي، أشاهد نفسي من زاوية ما كما لو كنت أشاهد فلما سينمائيا أمثل فيه دور ضحية الموت، أمسكت بذراعي جسدي الهامد المبلل الذي نال منه ماء الوادي وماء المطر وقمت بجره، ثم تركته قريبا من جسد يوسف...

ومن بين خيوط المطر الغزيرة لمعت أضواء شاحنة توقفت بالقرب منا... ثم انتهى ما أمكنني رؤيته على ذلك...كان ذلك أقرب إلى ذكرى حقيقية عالقة احتفظ بها اللاوعي وبعد أن استفقت سرت قشعريرة كتيار كهربائي خفيف خدر جسدي حتى أنني شعرت بالعجز و عدم القدرة على التفكير أو تحريك فمي لأروي ليوسف ما استطعت رؤيته... ثم همس صوت خافت في أذني ...

توقفا! توقفا! توقفا! ...

- أخفتني كثيرا حينها يا صاح!

- كان يجب أن أحذرك!استجمعت شجاعتي وظهرت، خشيت أنني أمارس المحظور فتنتقم مني الطبيعة! لكن ضميري البشري كان لا يزال يقظا حتى بعد فراقي لعالم البشر ورافقني إلى حياتي الثانية... الضمير يدفعنا لفعل أشياء كثيرة، ويمنعنا عن أشياء أخرى كثيرة أيضا، لذا صرت أفهم تصرفات بعض البشر واندفاعهم ...فهمت أنها رسائل وتنبيهات الضمير.

أثناء ذلك الحادث خشيت أن تبقى وحيدا فلا ينتبه إليك أحد ثم تتحول إلى طيف وحيد مثلي أو ربما ما كان ذلك ليحدث، لكنني فعلت ذلك لئلا أندم أنني تركت جسدا ضعيفا يواجه مد الوادي و برد الطقس بأنفاس ضئيلة، بحثت في جيوبك عن ما يثبت هويتك كما يفعل رجال الأمن عادة، لم يكن ذلك ليفيدك في شيء بما أنني شبح لكنني قمت بذلك وفقط ...وجدت بطاقتك الشخصية حينها وعرفت أنك أتيت إلى الحياة سنة1986...

طرحت على عجل سنة 1986من 2010 فعرفت أنك في الرابعة و العشرين فقط، ثم طرحت 1884 من 2010 فعرفت حينها أنني رحلت و مضى على حادثتي 126 سنة... كحلم مرت تلك السنوات بسرعة مذهلة إنها كيوم محدود بشروق شمس فقط...أما الغروب فلا أدري متى سيحل... متأخر إلى أجل غير مسمى...

بقيت أراقبك وأراقبك وأراقبك كل إثنين أطمئن على حالك، حتى فوجئت بك ...

***كنت تمارس المحظور الأعظم**

-هل هناك محظور أصغر؟

***الويجا[24] محظور أصغر! استرسل جوناس، كان عليّ أن أظهر حينها وأنصحك بالتوقف وضميري الذي لا يزال يقظا حتى بعد الموت يحتم علّي أن أخبرك أن الذي تفعله خطير جدا.**

- وكيف عرفت كل هذا يا جوناس! أقصد عن الجاثوم ....

***علمتني سيدة اللقلق كل ما يجب أن أتعلمه عن هذا العالم ...كما أن 126 سنة كانت كافية لأعرف الكثير وأصادف ما هو أغرب...أن أتقن الكثير، أمر بالكثير، أسمع الكثير، وأجرب الكثير...**

-حسنا ! لكنك لم تكن مخيفا إلى حد كبير، استغربت كيف أمكنني رؤيتك دونما يوسف حينها

- لأنك نصف جاثوم تنتمي لعالمنا ولا تسمى منا و لا من البشر ، يمكنني أن أظهر كما لا يمكنني ...أن أظهر لنصف جاثوم فلابد أنه نصف محظور فقط و لن يكون العقاب شديدا لذا قررت أن أظهر وقت الضرورة!!

***نعم أفهم هذا الآن...لكن ماذا عن أولئك البشر الذين يدعون رؤية الأطياف**

*** لربما هم واقعون في فخ المحظور ... كما أظن أنهم يمارسون الويجا مثلا ...أو لربما هم ممسوسون فالكثير من الناس لا يفرقون بين الجن والأرواح ...**

- أمم حسن...ظهورك من العدم أفزعني كثيرا كذلك شكلك الضبابي فكأنه ينتمي إلى الوجود واللا وجود في آن واحد! لكنني سرعان ما اطمأننت لمنظرك الودود و الأرستقراطي و شعرك الأشقر المصفف إلى اليسار و الذي يكاد أن لا يظهر من العدم وبذلتك الرمادية المرتبة جيدا.

[24] الويجا : لعبة استحضار الأرواح ....

سأكون صريحا يا جوناس يفترض بك أن تكون طيفا مخيفا مفزعا، لكن بسمتك و طريقة كلامك اللبقة تجعل الكثير من البشر يبدون أكثر إخافة و إفزاعا منك!!

أهو إطراء أم إهانة ؟ إهانة أم إطراء ؟ هذا يشبه نظرية الوجود واللاوجود! معادلة بحثت عن حلها لسنوات طويلة أأنا حي أم ميت ؟؟ لسنوات طويلة لم أتقبل حقيقة أنني طيف ...روح بلا وعاء ...أخذت أتعود على الأمر شيئا فشيئا ...و تأكدت من ذلك لما اكتشفت المنفذ من البرزخ الذي يفصل بيننا و بين البشر..

نتأمل معا السماء و مرور شهاب هاو تبتلعه الظلمة فما حتما يكون قد ابتلع خطيئة ما...

كم كنت غبيا وأنا أرتل تلك الأماني السخيفة عند رؤية شهاب ! إلى الآن أتساءل كيف صدقت تلك التفاهة؟

-أ كانت لديك أمان!

*** أجل كأي إنسان وجد في هذا الكون ...كنت أمتلك مثلها**

-لم تخبرني يوما عن حياتك السابقة يا جوناس ! أتذكرها؟

- ألا يفترض بك أن تكون مطلعا سابقا عل حياتي؟ دقق في اسمي جوناس ، ألم تقرأ قصتي كاملة في رواية :
Ce que le jours doit a la nuit[25]

-أحقا !! عشت في ريو سالادو إذن ![26]
- هه، ما بك يا صاح أمازحك فقط! أتصدق كل ما يقال لك؟

-إذن من أين أتيت!

***عشت في نفس الحقبة تقريبا لكن في مكان آخر في هذه الجزائر يسمى مونتيسكيو[27]، بلدة صغيرة في أقصى شرق البلاد لا تبعد كثيرا عن مدينة سوق اهراس[28] تلك المدينة التي أمر نابوليون**

---

[25] **Ce que le jours doit a la nuit**: رواية للكاتب الجزائري العالمي ياسمينة خضرة

[26] ريو سلادو : مدينة مستغانم الجزائرية تقع على ساحل الغرب الجزائريأطلق عليها هذا الاسم في حقبة الاستعمار الفرنسي

[27] مونتيسكيو: مادوروس كما سماها الأمازيغ و الرومان : وهي مدينة مداوروش مدينة تابعة لولاية سوق اهراس بالجزائر حاليا..

[28] سوق اهراس : "تاغست" كما سماها الأمازيغ و الرومان مدينة تقع أقصى الشرق الجزائري قريبا من الحدود التونسية

الثالث[29]في ذاك الزمن ببنائها كمشروع حضري كبير للمعمرين الفرنسيين شرق الجزائر، بعد أن علم أن ذلك الموقع بالضبط هو المكان الذي ترقد فيه تاغست[30] مدينة أوغستين القديس العظيم،بعد أن جزم له Stephan gzel[31]، وفريق من الباحثين المحنكين و أكدوا له الأمر ... سمع أبي أدولف الباحث و مدرس علم الآثار بهذا، فاصطحبني و أمي إلى هناك ....كنت صغيرا جدا حينها و أي مكان كان يناسبني، كل ما كان يعنيني أن أكون قريبا من والدي أما أمي فهي الأخرى لم تعترض الطريق أمام طموحات أبي ....كانت تلك الأرض غواية ومدعاة بحث و متعة كل عالم آثار كما أن فريق ستيفان لم يكن أي فريق، اسمه كان يكفي لتجسيد الآثار كلها، أقمنا هناك في بيت حجري كان أبي يقول عنه"بيت جميل، يشبه دوموس[32] روماني ... "

كان كذلك حقا كدوموس روماني يعلوه سقف أحمر، تلتف حوله الخضرة في الربيع و حلة الثلوج في الأيام الشتوية القارصة، أذكر أن أمي لم تكن سعيدة لفراق باريس[33] لكنها تعودت على مونتيسكيو و جو البحث العلمي و النبش عن الآثار الرومانية، كان أقصى الشرق مكانا زاخرا جدا بالتاريخ القديم... وفي كل يوم كان الفريق يكتشف شيئا جديدا ...

مونتيسكيو...

هي نفسها التي سماها الرومان مادوروس، و نفسها التي كتب فيها أبوليوس أول ما سمي بالرواية ...

أرتشف الشاي الذي بين يدي، أومئ برأسي وأنا أقول بأنفاس يطلع منها عطر النعناع: حديثك ممتع جدا يا جوناس ... واصل ...

---

[29]نابوليون الثالث: **شارل لويس نابليون بونابارت 20** إبريل**1808** م **9-** يناير**1873** م، كان رئيسا لفرنسا من**1848** م الى**1852** م ثم إمبراطورا لفرنسا تحت اسم نابليون الثالث من**1852** م الى**1870**م.

[30]تاغست:)حاليا سوق أهراس ،الجزائر (التي كانت مدينة أمازيغية تقع في إحدى مقاطعات مملكة روما في شمال أفريقيا أنشأت في سنة 202 ق.م في عصرمملكة نوميديا في شرق الجزائري على بعد 90 كلم من مدينة هيبون تعرف بمسقط رأس القديس أوغستين وأمه القديسة مونيكا.

[31]Stephan gzell: ولد في عام 1864 من أب رسام من سانت غالن (سويسرا) ذو جنسية فرنسية، وأم ذات صلة بقرابة بلويس باستور. طالب من مدرسة المعلمين العليا في عام 1883، عضوا في المدرسة الفرنسية في روما (1886-1890) وفي الجزائر تحت ظل الاستعمار الفرنسي شغل منصب بروفيسور بالمدرسة العليا للاداب ,و مديرا لمتحف العاصمة ثم مفتشا عاما لمتاحف الآثار قام بعدة أبحاث كشف من خلالها عن الكثير من الاثار الرومانية في جميع أنحاء الجزائر من أهم اصداراته :
الحفريات في مقبرة Vulci
البحوث الأثرية في الجزائر (1893)
الآثار القديمة في الجزائر (2 مجلدات، 1901)
الأطلس الأثريللجزائر (1902 - 1911)
موسوعة التاريخ القديم شمال إفريقيا (8 مجلدات، 1913-1929)
النقوش اللاتينية بالجزائر (2 مجلدات، 1922)

[32]الدوموس: **domus**: أول نموذج للبيوت الحجرية التي يعلوها سقف من قرميد أحمر كان في الامبراطورية الرومانية

[33]باريس : عاصمة فرنسا

بمرور السنين نمت بذرة البحث و العلم التي زرعها أبي في صدري تعلقت بالأدب و الفلسفة أحببت شكسبير[34] و موليير[35]و هيغو[36]،لكن البذرة كبرت أكثر لما عرفني أبي على الكولونيل ليون دايرون[37]، بعد أن أعجبت بشخصه و طموحه و ذكائه وقد تحول الاهتمام من شخصه إلى الهندسة والبناء و المدينة، إن من السفالة اغتصاب أرض غير أرضنا، وحقوق غير حقوقنا و طمس هوية لشعبها كل الحق في بصمتها وتاريخها وحضارتها وأرضها، لكنني و أبي، و الكثير منا أحب تلك الأرض التي لن و لم تكن لنا في الأخير كلنا بشر و البشر خطاؤون أنانيون ... فقد كانت سوق أهراس بالنسبة لنا أرضا لتحقيق الأحلام و الطموحات، مثلت عالمنا الجديد بكل ما تحمله العبارة من قوة .....

صاحبت دايرون في كل بحث قام به، و استعنت ببحوث أبي عن الآثار و التاريخ، كما كان المذهب الكلاسيكي العمراني[38] في أوروبا في ذروة نجاحه آنذاك، إنه مذهب له أسس و أصول رومانية لذا فإن استغلالها على هذه الأرض التي مكث فيها الرومان خمسة قرون لهو رائع جدا ...

أتدري لم استعانت المستعمرة الفرنسية بذلك العدد الهائل من فرق البحث المحنكة ؟فرق تنقب عن الآثار الرومانية بالذات!!

-لابد أن روما كانت مستعمرا مثاليا يقتدى به أليس كذلك ؟!

- نعم هي كذلك! مستعمر حول كل ما يمكن أن يوجد على وجه الأرض إلى سلاح، أو إلى وسيلة دفاع حتى فن العمارة، حتى الهوية والانتماء، الرومان هم أول من صنع بروبغندا[39] ناجحة ثم سماها حضارة و جعل منها تأشيرة لاغتصاب أراضي الشعوب !!

---

[34]شكسبير: شاعر وكاتب مسرحي وممثل إنجليزي بارز في الأدب الإنجليزي خاصة والأدب العالمي عامة، سمي بـ"شاعر الوطنية" و "شاعر افون الملحمي "

[35]موليير: مؤلف كوميدي مسرحي،[1] وشاعر فرنسي، ويُعد أحد أهم أساتذة الكوميديا في تاريخ الفن المسرحي الأوروبي ومُؤَسِّسُ "الكوميديا الراقية". قام بتمثيل حوالي 95 مسرحية منها 31 من تأليفه

[36]فيكتور هيغو: كان أديبا وشاعرا وروائيا فرنسيا، يُعتَبر من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية

[37]ليون دايرون: ليون ديرون (20 فبراير 1874 - 3 مارس 1947) كان سياسي فرنسي.ولد ديرون في قسنطينة، الجزائر. وكان يمثل الحزب الراديكالي في الجمعية التأسيسية المنتخبة في عام 1945 أشرف على بناء مدينة سوق اهراس و تنظيمها سياسيا عسكريا و حضريا لتكون كقاعدة عسكرية مهمة في منطقة الشرق الجزائري بحكم موقعها القريب من تونس صدر له كتاب "سوق اهراس" توفي بسوق اهراس سنة 1947

[38]المذهب الكلاسيكي:مستلهم من العصور القديمةوقد اخترع اخترع لتعظيم مجد لويس الرابع عشر ثم شاع في جميع أنحاء أوروبا. ثم تصل هذه العمارة إلى الخارج تعكس قوة ملك فرنسا.جماليات هذه العمارة يقترب منأساسيات العمارة اليونانية والرومانية المعترف بها كمراجع مثالية.

[39]بروبغندا: كلمة تعني نشر المعلومات بطريقة موجهة أحادية المنظور وتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص. وهي مضادة للموضوعية في تقديم المعلومات

حماسي ونشاطي إضافة إلى احتكاكي بستيفان و دايرون و مشاركتي في نشاطات أبي جعلت اسمي يأخذ مأخذه من الصيت والشهرة، ليصل إلى نابوليون الثالث الذي طلب حينها بنفسه، أن يقوم جوناس ببناء البازيليك التي ستمثل صرح البلدية تخليدا للقديس الأعظم أوغستين!! ...

كانت سعادة غامرة... لكن أن يتحقق ما كنت تطمح إليه بتلك السرعة، لا يدل دائما على أنك أوفر الناس حظا، بعض الحظ يموت منتحرا في المنتصف، أحيانا يكون عزاء مسبقا تقدمه الحياة على بطاقة فاخرة باسم الحظ والنجاح. ذلك تماما ما حدث معي.

-أتمم يا جوناس ما الذي حدث معك فيما بعد ؟ قصتك تثير فضولي

بيدي و على ذلك المخطط التام جزئيا اخترت قطعة الأرض تلك منحرفة الشكل، قريبة من شجرة أوغستين، و زاوية بها ضريح رجل رددت القبائل المسلمة أنه ولي صالح مبارك، يسمونه سيدي مسعود[40]فتجتمع حوله من حين إلى حين و تقام حوله الأهازيج و الوعدات ... كما تسمونها...

أحببت ذلك المكان كثيرا، وأحببت عادات أهله و نيتهم الطيبة، بساطة عيشهم، اخترت تلك القطعة قريبة من كنيستنا و جامعهم و زاويتهم فلهم في أوغستين نصيبا كما لنا فيه، ولربما كان نصيبهم أكبر طبعا لم أكن أفصح بمكنوناتي ذلك أن الاعتراف بشيء كهذا ثمنه أن تأخذ المقصلة رأسي، رغم أنني في الأخير اكتشفت أن الموت هو الموت ولا داعي لذلك الخوف الكبير منه مهما تعددت الأسباب!! ...

أردت أن أستخدم الأردواز[41] المستورد من إيطاليا، بلد القديس الأصلي لنصف قبة تعلو السقف كما ...كما أردت أن يزين أسفل المبنى أعمدة شبيهة بالأعمدة التي تكتسح مادوروس وتيفاش[42] وغيرها من المدن الرومانية التي اكتشفها ستيفان ...

---

[40]ضريح سيدي مسعود: لولي الصالح **سيدي مسعود الشافعي بن بوبكر الفاروقي(1620-1503)** [1] ويعد من أتباع المحافظين على المذهب المالكي والمنهج الأشعري لذا فبعد وفاته أصبح ضريحه أول زاوية للعيساوية في سوق أهراس، تقع على بعد أمتار من زيتونة القديس أوغسطين. رممت زاويته ابان الاستعمار الفرنسي .

[41]الأردواز:**اردواز** أو **حجر سجيل (Slate)** هو صخر صفائحي ، أو حبيبات من الصخر المرقق ، وهو نوع من الصخور الرسوبية تكونت من الطين أو من الرماد البركاني عبر ملايين السنين . والنتيجة هي صخور مرققة كأوراق الشجر . في كثير من الأحيان رمادي اللون. نستخدمه فى صناعة ألواح الأردواز . وفي المناطق الأوروبية التي يكثر فيها يستخدم كألواح منتظمة لتغطية أسقف المنازل ،وأحيانا يغطى مبنى البيت كله منها.

[42]تيفاش : **تيفاش** مدينة أثرية تتموقع على بعد 33 كلم عن مدينة سوق أهراس، يعود تأسيسها للقرن الثاني بعد الميلاد في حقبة الأمبراطور **TRAJAN** في عام **534** تم احتلالها من طرف البيزنطينيين الذين حولوها إلى حصن كقاعدة خلفية إستراتيجية تعمل على صد الهجومات الخارجية.

أردت أن تكون الجدران من الحجارة و النوافذ كبيرة بزجاج عريض يحتضن الكثير من أشعة الشمس و الضياء و الأمل أردت شرفة ترتكز على تلك الأعمدة تعلوها ساعة كبيرة تذكر المارة بشيء ما ينتظره كل البشر لكنهم لا يستطيعون تحديد ماهيته

أردت كل ذلك يا سيف !!

إلى أن تسللت إلي ذلك اليوم خيوط نور ضئيلة حين كنت أطفو في قبو مظلم، كان النور ضئيلا إلى الحد الذي لم يتح له إجلاء العتمة...أجل كنت أطفو، كأنما الجاذبية التي تحدث عنها نيوتن انعدمت، خفت كثيرا و ارتعبت، لم أشك يوما من رهاب الظلام لكن شيئا ما أخبرني أنني على وشك اختبار شيء فظيع!!
استعدت وزني ووقفت من على الفضاء الذي كان يحملني بحثا عن منبع خيوط النور لعلها تقودني إلى مخرج، وفعلا وصلت إلى باب تحسست مقبضه ... حاولت فتحه عدة مرات و فك سراحي لكنه كان موصدا بقوة تفوقني، تساءلت في قرارتي عن الذي أتى بي إلى هنا، كنا في زمن الحرب و أتينا كمستعمرين، تقاذفتني احتمالات كثيرة ربما أنا رهينة أو أسير أو مسجون كل الأمر أنني لا أذكر ما حدث بالضبط... !!

حاولت فتح الباب وأخيرا حين عجزت، قررت أن أكسره ...!!

واحزر ما الذي حدث ...

اجتاز جسدي الجدار من الظلمة إلى النور بخفة ريشة. على ناصية الطريق وجدتني،دون أن ينكسر الباب ، بقي على حاله دون أن يمسه خدش، أو يبقى عليه أثر، أمام مبنى ماجستيكي جميل ،بازيليك بنيت من الحجر تزينها نوافذ بزجاج عريض يعانق حزمة غليظة من نور الشمس، أعمدة و شرفة تعلوها ساعة دائرية الشكل، ونصف قبة من الأردواز ...

كان ذلك ممتعا و مخيفا، مدهشا ورهيبا في نفس الوقت قلت في قرارة نفسي حينها هذا مشروعي الذي أردته، إنه هو كما أردت بدقة متناهية لابد أنه حلم جميل، لابد أن عقلي يترجم طموحي إلى حلم جميل، كنت سعيدا جدا.... فلم أتعجب لكم الناس الذين مروا بي كأنهم لا يلاحظون وجودي، ولكم المباني الجديدة، لم أتعجب لأني اعتقدت أنه حلم حقيقي جدا ...

في تلك اللحظات خيم الليل بردائه الأسود، على تلك الشرفة جلست أراقب القمر تماما كما نفعل الآن، و فجأة نزل طائر اللقلق الذي كان يقف فوق الساعة، اقترب مني بهدوء كدوق أرستقراطي وحين اقترب تماما تحول إلى زوبعة دخان أبيض، التف حول نفسه ثم شكل قمعا ظهرت منه ملامح وجه ثم جسد امرأة...

حدقت بي طويلا :ثم قالت روح ... روح تائهة أخرى!!...روح فتية ..."لا تبك ولا تتعجب ستكون بخير!! " لكنني لم أبك منذ 126 سنة ...

نزلت دمعة مضيئة من عين جوناس أضاءت كل الغرفة بوهجها ثم انطفأ بريقها بمجرد ما سقطت و اصطدمت بالأرض.

*فكرت ...وفكرت ثم أدركت أنني أصبحت جزءا من عالم آخر و في نفس الوقت لا أزال محتجزا على سطح الأرض محروما من السلام الأبدي، حاولت آلاف المرات، إقناع نفسي أنني في حلم و لربما تعرضت لحادث ما جعل جسدي يرقد في غيبوبة لعل هذا ما يراه المريض في غيبوبته!!

لكن بمرور أيام معدودات يا سيف وطلوع الشمس وغروبها مرات عدة بطريقة عادية ...اكتشفت أنني ما سميناه في الحياة بالشبح،أنني تحولت إلى كائن مرعب مخيف غير مرئي ...و أدركت أنه بات بإمكاني العيش في عالمين معا...

وشيئا فشيئا بات بإمكاني رؤية مخلوقات غريبة ...أهازيج و عجقة أناس أمام الزاوية ونسوة غريبات المظهر ، يمكثن على الأرض تارة ، ثم يتحولن إلى رماد أسود يتطاير في أركان السماء و بالقرب من قبة الزاوية تارة أخرى، يبكين تارة و يصرخن تارة و يضحكن تارة .... قطط وكلاب وجرذان وطيور، وحتى سحليات، وحشرات تعيش بين العالمين...

كان ذلك أول ما تورطت في اكتشافه، لكن الوحشة نالت مني والحنين إلى أهلي آلم صدري ... آلم صدري كثيرا !! لابد أن الفؤاد و المشاعر و الأحاسيس تصاحبنا حتى ما بعد الحياة البشرية!!

تبعت قطار الفوسفاط إلى أن وصلت إلى مونتيسكيو...

-هل وجدت أهلك؟

*لا!! تغير كل شيء لابد أن زمنا طويلا قد مضى!! لكنني انتهت إلى امرأة اللقلق التي تتبعني من مكان إلى آخر !! و تكلمني بين الفينة و الفينة...كأنما تود إخباري بشيء ما ...استجمعت شجاعتي و سألتها فأخبرتني أن أبوي رحلا إلى باريس منذ زمن بعيد و ارتاحا في مرقدهما الأخير هناك...اعتقدا أنني اختطفت من طرف الأهالي و ربما قتلت انتقاما من كيان الاستعمار لكن ..لم يعثر على جثتي أحد و بقي أمر اختفائي غامضا ..توفيت أمي بعد سنة من تلك الحادثة ...و فارق أبي الحياة بعد سنتين من وفاة أمي ...كأنهما رفضا الاستمرار في تلك الحياة من دوني ...و ربما حمل أبي كل الذنوب لنفسه ...

لابد أنهما يمكثان في ركن ما في هذا الكون...ركن بعيد جدا ليس باستطاعتي الوصول إليه، ليس لي بيت آخر غير صرح بازليك القديس أوغستين هذا كل ما حدثتني عنه سيدة اللقلق...

-أما كانت لتخبرك إن لم تسألها؟

*ربما أنني كنت أخشى الحديث إلى ذلك المخلوق الغريب، فكنت أتجنبه و مع الوقت تمكنت من استيعاب أنني و سيدة اللقلق نتشارك الوحدة و الغرابة و بازليك القديس أوغستين ...أخبرتني عن كثير من الأشياء الغريبة، عن الروح و السحر، و الجن ...و السبع أرضين ...

-السبع أرضين؟

* أجل، سبعة انعكاسات لسبع أراض بما فيها ....

-إذن، يوجد مني سبعة ؟!

- نعم يوجد منك سبعة !!بنفس العمر ونفس الحياة و نفس الأحلام ! ويوجد مني واحد فقط!

علمتني ما المسموح به داخل انعكاسنا هذا و ما المحظور، كما اكتشفت أن ليس كل البشر بإمكانهم التحول إلى أطياف بعد الموت... كل روح تتجه إلى مرقدها الأخير أما الأرواح العالقة على الأرض لسبب ما...هي الأشباح و أني مثال حي عنها ...

- وأسوأ ما اكتشفته يا سيف، أنني مت مقتولا ...أليس ذلك مأساويا ؟! حتى امرأة اللقلق متجمدة الملامح شعرت بالأسف، وحزنت لأجلي!!

*نعم محزن جدا! ألم تخبرك باسم القاتل؟

- لا هي لم تفعل! لأن ذلك يظل ضمن المحظورات و هي سيدة وقورة لا تمارس المحظور فقط لظنها أن ما حدث معي مأساوي...

*حسنا، فهمت!!

- لكن بما أنني مت قبل بناء المشروع الذي خططت له، كان حريا أن أعرف مدى النجاح الذي حققه، لابد أن صيتي قد ذاع في المستعمرة، هذا ما يحدث في العادة لا يشتهر المميزون و لا يكرمون إلا بعد موتهم !!

-*تظن أنك كنت مميزا؟

- لابد أنني كنت كذلك! لكن اسمي لم يكن ذائعا ومشروعي الذي حلمت به نسب إلى شخص آخر ...زميل آخر!!

*أه ...اتضح كل شيء الآن، و اتضح شأن وجودك بين عالمين، وغايتك، فهل انتقمت؟!

- لم أفكر في الانتقام، حتى أنني لم أتقص إن كان الشاب الذي نسب مشروعي إلى نفسه حيا أم ميتا !!فلربما شأن وجودي على الأرض مرة ثانية وراءه رسالة ما لربما شأني أعظم من بناء بازيليك للمستعمرة الفرنسية فقط....

(طرق على باب الغرفة)

اضمحل جوناس كالسراب ...وبقي صوته يتردد في رأسي كالهمس

"المنتظر المنشود قادم ...كن بخير يا صاح!! "

دخلت أمي فاطمة علي:

نم يا سيف، غدا ستستيقظ باكرا، ستساعدني في الصباح لاقتناء ما يلزم ثم تصحب أباك لاستقبال ضيوفنا، نم بني...

-حسنا عمتي مساء يا أمي...

***

كما في كل مرة يرحل جوناس تاركا وراءه ألف سؤال، و إجابات ضبابية لا تقودني إلى يقين، يقول تارة أن حبه الكبير للهندسة هو على الأرجح ما جعله يتحول إلى طيف و روح ضائعة ... ويقول تارة أخرى أنه لربما يحمل مهمة ما كلفه بها القدر!!

ما يحيرني، أنه يمتلك شيئا من الضمير و الألم البشري، وشيئا من العالم التحت البنفسجي، ربط تحولي إلى نصف جاثوم بحادث وقع معي!! و خال أن السبب الثانوي الذي يجعل الأمر يتطور بسرعة غياب شيء ما يجعلني أتمسك بالحياة، يفكر في أنني مهتز متزعزع أحتاج إلى كثير من القوة و سعة الصبر...

والآن أتساءل ما الذي سيجعلني أتمسك بالحياة أكثر!!

ربما هي مجرد استنتاجات و فرضيات لا يمكن لها الوقوف بوجه القدر وقد يكون هذا قدري فحسب ...

قيل :

أننا قد نصاب بالغربة دون أن نغادر غرفنا و غربة الروح أقسى غربة

صعدنا السيارة وسنرحل عن هذا المكان الذي احتضننا طويلا، وتبنانا كثيرا سنذهب إلى المكان أين تفترض أمي أنه علينا التواجد فيه، والحياة به، لم تحدثنا عن التفاصيل، لم تخبرنا أين سنمكث هناك؟ هل سنحل ضيوفا في بيت العم موسى (صديق قديم لأبي السلطان و أمي كاترينة)، شدة حب أبوي لصديقهما موسى جعلهما يسميان ابنهما على اسمه تيمنا بحب الصداقة، وتخليدا لها، فإن نجحت المسافات في إسقاط اللقاءات فالقلوب تضل ترفع أعلام المحبة ولن ينجح في كسر أجنحة وفائها شيء.

هذا ما أفكر فيه، أن أمي كاترينا ستفضل اللجوء إلى العم موسى على اللجوء إلى أمها في مالطا... لم أنتبه إلا و اليقظة تردني من شواطئ النعاس، وعوالم النوم إلى الساعة الالكترونية السوداء التي تقابلني على لوحة السيارة تظهر فيها الأرقام كخيوط نارية تلتف و تصنع أشكالا للوقت، مرت ساعات طويلة يبدو أنني نمت بعمق و لم يشأ أحد إيقاظي، كما يبدو أننا قطعنا مسافة طويلة بعد أن قطعنا الحدود!!

أين نحن؟ أقول بصوت شبه مبحوح.

-هذه عنابه[43] سنعود إليها في القريب العاجل ونمضي معا أوقات فسحة أعدكما بذلك....

قالت أمي جملتها بصوت ندّي به شغف، كأنها انتظرت السؤال لتبدأ سرد قصص طالما حكاها أبي معتزا و مفتخرا بتاريخ موطنه عن أوغستين، وكنيسته التي تتعبد فوق ربوة عن هيبون[44] و روسيكادا[45]، مضى الوقت سريعا كانت العجلات تلتهم بشراهة المسافة، حتى ظهرت تلك اللافتة الزرقاء مستطيلة الشكل التي لم تكن تحمل فقط اسم ولاية، وولايات مجاورة، بل تنبؤنا ببدء حياة جديدة مختلفة بعيدا عن كل ما ألفناه و اعتدنا عليه...كصك حياة جديدة يأتي محلقا.

ولاية سكيكدة ترحب بكم.

كنت أحدثني، أهدتني سيدي بوسعيد أياما جميلة، بين بحرها و شوارعها و أزقتها و قصر النجمة[46] ثم انقلبت تلك الأيام إلى ظلام دامس و متاهة كبرى فقدت وافتقدت فيها أبي وأخي، راحتي و أماني

[43] عنابة: مدينة ساحلية أقصى الشمال الشرقي الجزائري

[44] هيبون : الاسم الروماني لمدينة عنابة

[45] روسيكادا : الاسم الروماني لمدينة سكيكدة

[46] قصر النجمة:

ثم انتمائي، فيا ترى ما الذي ستقدمه لي سكيكدة بين حزن و فرح و نور و عتمة! هذه المدينة التي جئناها بعدما أفلسنا عاطفيا، بعدما دمرت أحلامنا، وقامة الرجال التي صنعت شموخنا، جئنا إليها بعدما بنى السواد حضارته في حياتنا، ترى هل قادرة سكيكدة على أن تغرق هزائمنا وتصنع لنا فرحا جديدا؟

مدينة سكيكدة ترحب بكم (هتفت كاترينة)، بسعادة طفلة لم تعرف الخذلان، بعيون تنضح سعادة وشوقا وحنينا، فكرت كل الوقت في أن روح السلطان لازالت حبيسة بيتنا في سيدي بوسعيد ، لكن اتضح لي منذ دخولنا إلى هذه المدينة العتيقة أنها هنا، ممتزجة بهوائها، بمزاجها، لابد أنها هنا في جسد أمي وتحولت البسمة إلى بسمتين، حكى أبي عن هذه المدينة كثيرا، كما حكى عن تونس قائلا أنه لولا نباهة و حيلة امرأة لما قامت، لازلت أذكر حكاياته الطويلة عن ماسيل[47] و ماسيسيل[48]،عن ملوك هذه الأرض و أبطالها، حنبعل[49] و ماسينيسا[50]، عن يوبا[51] و يوغرطا [52]وشاشناق[53] عن كل هؤلاء... كم أحب أبي التاريخ، والعظماء و الوطن ...

أبطال! كان يقول إنهم أبطال ولولا ذلك ما خلدت أسماؤهم فالتاريخ لا يمجد إلا المحسن العظيم أو الظالم العظيم!!

---

[47]ماسيل: مملكة الماسيل :في شرق نوميديا (حاليا القسم الشرقي من الجزائر والقسم الغربي من تونس)

[48]ماسيسيل:مملكة المساسيل :في الغرب (حاليا القسم الأوسط والغربي من الجزائر.(

[49]حنبعل: حنبعل بن حملقار برقا الشهير حنا بعل أو بهانيبال أو هاني بعل **247)** ق.م - 182 ق.م[1] (قائد عسكري قرطاجي فينيقي ينتمي إلى عائلة بونيقية عريقة، ويُنسب إليه اختراع العديد من التكتيكات الحربية في المعارك لا زالت معتمدة حتى اليوم.

[50]ماسينيسا: يعد موحد مملكة نوميديا وعاصمتها سيرتا) قسنطينة اليوم) وهو ابن الملك غايا كان حليفا لقرطاج، وشارك وهو ذو 17 عاما فقط مع صدربعل جيسكو في هزيمة صيفاقس الأولى. وحارب كحليف لقرطاج في هسبانيا مع حنبعل، بفرسانه النوميديين. وبعد هزيمة القرطاجيين في الجزيرة الإيبيرية عرض خدماته على القائد الروماني سكيبيو الإفريقي فقاتل إلى جانبه في معركة زاما، ووعده الرومان بأرض نوميديا .ودخل تحت سلطته قبيلته ماسيلي، وقبيلة الماسيسيلي، التي كانت تتبع سابقا لصيفاقس .وتزعم قبائل البربر، خلفا لوالده غايا .وفي الأخير قاد حرب عصابات ناجحة ضد الرومان.

[51]يوبا: الملك يوبا الاول ملك أمازيغي نوميدي ابن هيمسال الثاني و حفيد الملك القائد يوغرطا ولد بونة وهي مدينة عنابة حاليا كان حلمه توحيد شمال افريقيا كما فعل جده الملك ماسينيسا تلاه في الحكم الملك يوبا الثاني المشاع أنه تزوج الملكة الفرعونية كليوباترا سيليني .

[52]يوغرطا: ملك و قائد نوميدي و حفيد ماسينيسا قاد أشهر الحروب ضد الجمهورية الرومانية

[53]شاشناق :شيشنق(شاشانق شيشاق شوشنق)(950-929ق.م) ملك مصري من أصولا مازيغية. يرجع نسبه إلى قبائل المشواش الأمازيغية، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين وهو ابن نمروت من تنتس بح.فقد انصهر الامازيغ في مصر كحال جميع العرقيات الاخري و استطاعت عائلته الاندماج في المجتمع المصري و تولي مناصب دينية,فتم توليته علي بعض مناطق مصر حيث جمع بين يديه السلطتين المدنية والدينية وهكذا وبسهولة تامة استطاع شيشنق أن يتولي الحكم في مصر بمجرد وفاة آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين وبالتالى أسس الأسرة مصرية ثانية و عشرون في عام 950 ق.م التي حكمت قرابة قرنين من الزمان. أما الإغريق فسموه سوساكوس.

يوبا !! لطالما ناداني أبي بكليوباترا القمر[54] و تمنى لي بعلا كيوبا ..لم يتمنى و يطلب هذا لعفاف، لابد أنها شعرت بالغيرة و لو أنها نجحت في إخفاء ذلك...

كلما أتى السلطان على ذكر روسيكادا مسقط رأسه ذكر بحرها و ملحه و سفنه و زوارقه و شباكه و مناراته، وشوارعها و أزقتها و موسم الفراولة[55] فيها ورائحة ترابها، عن لهجة سكانها. التف حولي وشاح من ذكريات عذبة بينما لازلت أمي كاترينة ساهمة في ماض ما، تمارس طقس الحنين على صدر أبي في ركن ما في هذه السماء. أفعمت جوارحها و أخذت البسمة ترتفع على صفحة وجهها من حين إلى حين، أرخيت جسدي قليلا ثم أنزلت زجاج نافذة السيارة، حقا! هنا رائحة أبي، بلهجته الحلوة التي أطعمت قلوبنا حبا، شخصت في المباني و الناس، الصغير منهم و الكبير باحثة عنه بينهم، باحثة في وجوههم عن انتمائي لهم، امتلأ أنفي برائحة البحر تعانقني و تربت على روحي ها نحن ذا، الجزء الضائع من هذه المدينة يسوقنا القدر إليها و يرجعنا كمصير طفل ضال عاد إلى أحضان أمه الحنون ...أمه الحنون....

واجهات المباني، نوافذها وقرميدها الأحمر وشرفاتها، تشي بمرور فرنسا من هنا وكيف لا تفعل !! لطالما كان الساحل الإفريقي هدفا شهيا للقوى العظمى على مر التاريخ، المعمار ذكرى فريدة تفتح جروحا ثم تضمدها، المعمار الذي تركه المستعمرون على أراضينا، يذكرنا دوما بالتبعية ثم الاستقلال، كيف فكروا في أن لهم أن يمتلكوا ما ليس لهم، تعلمنا هذه الندوب والبقايا أن الحفاظ على الهوية مكلف، وأن الوطن يحتاج دما ليعيش، ليبقى.

****

تلاشت ضبابة الحنين من على رؤوسنا لما بدأ صوت رنين هادئ يعلو شيئا فشيئا ... (جوال أمي)

- ألو!

نعم نعم وصلنا!

---

[54]كليوباترا القمر: و هي الملكة كليوباتا سيليني ابنة الملكة كليوباترا زوجة انطونيوس يشاع أنها تزوجت بالملك يوبا الثاني الذي بنى ما يعرف بضريح الرومية في تيبازة بالجزائر اكراما لها بعد رحيلها ...

[55]موسم الفراولة: عيد الفراولة .هو عيد يقام كل سنة من 26 ماي الى 28 في ولاية سكيكدة تعيش معه مدينة سكيكدة عرسا حقيقيا تصنعه في المقام الأول الفراولة ثم فرق الفنطازيا والزرنة والبارودو يقوم فيه الفلاحون بعرض منتاجتهم و تقيم لجنة التحكيم من هو صاحب أحسن منتوج فيعطى الجائزة، و تمنح فهذه المناسبة اعانات حكومية للفلاحين.

ثم مررته إلى السائق، لابد أن أحدا ما ينتظر وصولنا، لا ريب أنه العم موسى فلا أحد لنا غيره هنا رغم أن أمي لم تخبرنا شيئا بعد.

بعد دقائق معدودات ظهرت أمامنا سيارة بيضاء يقودها شاب لم أتبين ملامحه جيدا بعد، يحذو حذوه العم موسى...

بادلناه ابتسامته المرحبة، وجهه الأبيض الذي تملأ قسماته خطوط رسمها مضي السنين، يذكرني بأبي ...بعد موت السلطان أصحبت أرى وجهه في كل وجه يقطر نبلا، وتجاعيد هذا الوجه تحديدا تشعرني بالأمان، كل واحد منا يملك تلك الوجوه التي ترتبط باطمئناننا واستقرارنا بوجودها فقط بنظرة منها يرتفع هرمون السعادة، وإن غابت أصابنا من التيه والضياع ما أصاب...

توقف السائق بعد دقائق معدودات، بعد توقف السيارة البيضاء ...نزلنا أمام أحد تلك البيوت ذات القرميد الأحمر، تحديدا بيت بطابقين يغلف واجهته اللون الحليبي المائل إلى الاصفرار، تنسدل على شرفاته سيقان نباتات الزينة، ويراقص نسيم بحري الورود على حوافها يعانقها ثم يقبلها و يسرق منها بعض الأريج ليملأ به أنوفنا، تبدو هذه الشرفات شهية لإمضاء خلوة مع القمر في ليلة صافية ووجه رغوة على فنجان شاي، و إحدى روايات أغاثا كريستي، لن أفوت ذلك!

قطعني عن سهوتي انحناء الشاب بجسده الطويل نحوي، اقترب ووضع لحيته الشائكة على صفحة خدي ...وسلم علي!!

-مر وقت طويل يا ميسون، تغيرت كثيرا يا فتاة! مغرقة في دهشة عقدت حاجبي بما يوحي باستغرابي، واصل قائلا: ألم تتعرفي علي؟ لابد أنك نسيتني وهذا طبيعي، كوني لم أرافق والدي لزيارتكم منذ سنين!

*بلى،

قلت بعد شيء من الصمت، وأردفت مبتسمة: عرفتك! لابد أنك سيف!

اقترب العم موسى فعانقني مقبلا رأسي كما جرت العادة هنا، لأننا نحب ونعظم من نحب نقبّل على الرأس.

صغيرتي كبرت كثيرا، سبحان من جعلك نسخة عن كاترينا...هيا، لندخل إلى الداخل الزهراء بانتظارنا.

آخذ نفسا عميقا! أجدد هواء رئتي وأجدد استعدادي لحياة جديدة، وجوه وبيت جديد. لهجة أبي كثيرة هنا ولون البحر يردني هناك.

يبدو أن خالتي فاطمة الزهراء، كانت تعد لاستقبالنا منذ ساعات كل أنواع الحلويات المتراصة على الصحون الفضية وفناجين القهوة الأنيقة، رتبتها على طاولة كبيرة وسط البيت يغطيها شرشف قطني فاخر من صنع يدوي. كم تجيد سكيكدة الترحيب بضيوفها؟ كم بارعة هي في احتضانهم؟

رحبت بنا وبادلتنا العناق، ثم همت في حديث مع أمي من المؤكد أنه سيطول وربما لن ينتهي، كلما كبرت المرأة ضعفت طاقتها في كل شيء، إلا طاقة الحديث فإنها تزداد.

فشل فنجان القهوة في قتل التعب الذي يؤثث جسدي، و دحر التعب فنالت مني دوخة النعاس لأرى الشفاه تتحرك و الصوت الذي يخرج منها لا يصلني واضحا جدا، فمهما حاولت أشعر أنني كمن يحاول السماع تحت الماء، بقيت أراقب تقاسيم الوجوه و ارتفاع الابتسامات الحزينة من حين إلى حين، دون أن أفكر في شيء محاولة استغلال لحظة الارتخاء فلعلها لن تعود.

أحسست بعيون تراقبني طيلة جلسة الاستقبال وتشدني إليها! لم أجرؤ على الالتفات، واختبار إحساسي، لكن شعورا غريبا قبض صدري ومنعني من ذلك...ومن الجانب الآخر عيون أخرى تعانقني... كانت عيون أبي السلطان في صور له مع العم موسى على ميناء لافاليتا، صور قديمة جدا تحتفظ باللونين الأسود والأبيض حاولت جهدي البقاء محدقة بها، منتظرة عبثا أن تغمزني أو تبتسم لي...

لاحظت خالتي الزهراء مدى تعبي، بحنان أم قامت ودلتني على غرفة قامت بترتيبها لي ولعفاف مسبقا، لم يبق في جسدي ما يكفي من طاقة لأقف على قدمي وأستطلع غرفتي الجديدة، انساق جسدي الواهن نحو السرير مباشرة كدمية تحركها أياد خفية...

ظلام دامس يكبلني ويجثو على صدري، و أياد كثيرة تمسك بخوانقي وتحكم إمساك أطرافي، كهف رهيب ...أحاول الصراخ لكن صوتي لا يتعدى حدود حنجرتي، أحاول و أحاول دون جدوى، لكأنني على شفا فجوة مظلمة نحو الموت انفتحت فجأة في هذه الغرفة... ثم يد باردة تمسح على جبيني و تنتشلني من ذلك القاع العميق! انتفضت كمن شارف على الغرق بشهقة عادت بي إلى الحياة لابد أنه كان جاثوما !!

-كنت تصدرين أصواتا تشبه الأنين وتتحركين، اعتدلي ولا تنامي على ظهرك مجددا!

كانت تلك اليد لعفاف أيقظتني برفق لما سمعت أنيني وانتشلتني من بين أنياب ذلك الكابوس، لم أجبها بعد حتى طرق باب الغرفة، ثم دخلت أمي علينا...

*هيا إلى العشاء، سيجتمع الجميع لا تتأخرا!

****

أعادني إلى وعيي بعض الماء البارد رششته على وجهي، استجمع قوى جسدي ولا أنفك أفكر في جدران البيت التي لا تشبه جدراننا، واقع أن أتعود على غرفة ليست لي، وأنام على سرير غير سريري، وأجلس إلى طاولة طعام جديدة مع أفراد جدد، أن كل العادات والحكايات ستكون غير التي تعودت عليها. مؤلم الفراق، وموحش ولو كانت الأشياء التي أحن لها بسيطة، إلا أن عشرتي بها وألفتي لها قداسة خاصة، وحب خاص وحياة خاصة.

اجتمع الجميع حول طاولة الهو، بهو تتشح جدرانه بورق جداري حليبي، تزينه بعض الزهور الذهبية، تستند على أحد جدرانه طاولة خشبية بطوله،تكللها بروازات صور كثيرة، وصور لمالطا و سكيكدة، نملك نسخة لكل صورة منها في بيتنا القديم،كل هذه اللحظات المحنطة في صور جعلت المكان مألوفا و مطمئنا، كأنه يشبه ذاكرتنا، وربما يقتسمها معنا.

بدأت الخالة فاطمة توزع الأكل على صحوننا، وسيف كمرشد سياحي، وكخبير بشؤون الطبخ يقدم لنا الأطباق السكيكدية، فتبتسم الخالة تارة وتنهاه عن الثرثرة تارة أخرى.

-مممم ميسون هذه مرقة بويابس[56] تذوقيها

ابتسامة سيف وبريق حدقات عيونه التي تبدو كصحون عسل جبلي مدورة، كلون النبيذ المسكر،تجعل الناظر إليها ينتشي، ترحيبه بنا واهتمامه ونكاته البسيطة التي أعادت الضحكة إلى عفاف وبسمتها، معاملته الرقيقة طريقة حديثه، كل هذا جعلني أرتاح حياله، لكأنني ألفت وجوده في حياتنا منذ زمن بعيد.

شخصية كهذه قد تدفعك للبوح بكل ما يختلجك بإرادة أو دون إرادة، لن تكون معرفة ذلك مهمة بقدر ما يهم الغسيل الروحي وطرح كل ما يشوب روحك، ليعود داخلك نظيفا من جديد، وفي هذه الحالة لن يهم التعارف، ولا كم مضى من الوقت عليه ...بضع دقائق، ساعة أو يوم لن يكون ذلك مهما.

[56]مرقة بويابس : طبق تقليدي تشتهر به مدينة سكيكدة

أردف سيف قائلا :

-غدا سأصحبكما في جولة حول روسيكادا...ثم استرسل بصوته العفوي العذب: سيذهب الشباب فقط، أما العجائز و الشيوخ سنتركهم هنا يستحضرون الماضي على أغنية الأطلال لأم كلثوم...

ضحك الجميع من مزاحه، إلا الخالة فاطمة التي عبست، وكأن الكلام استفزها، فخالتي فاطمة من نوعية النساء اللائي يقدسن الأنوثة و كل رمز من رموزها،امرأة خمسينية تحافظ على أظافرها مقلمة و مطلية بطلاء ذو لون ناعم، كما تحرص على أن تكون تصفيفة شعرها قصيرة، لتلائم امرأة في سنها، ولابد للكحل من أن يكون شديد السواد ليلائم عيونها العسلية التي تزداد بريقا، بانعكاس لون فستانها الكستنائي ذو الأكمام الطويلة، يرتخي عليه عقد ذهبي طويل يبدو فاخرا و ثمينا...

عزة الأنوثة التي تجعلها كملكة على عرش بيتها ... رأسها وأنفها القصير الشامخين... و تقطيبة حاجبيها التي عبرت عن استياءها من مزاح سيف، أوقدت بريق ابتسامة فريدة على وجه العم موسى، لابد أنه استلطف غضب ملكته الهادئ، لابد أن أنثاه القوية استفزت الرجل الشاب داخله، فعزلته عنا و عن سيف و كل الوجود ...

وضع يدا على ركبتها ...

-له له،لن أسمح باصطحابكم لفاطمة أخشى عليها، كما أخشى أن يأتي شاب فيخطب أمك منك يا سيف، فأشعر بقهر شديد...

-الله الله على الحاج ...أردف سيف، ساخرا

عادت البسمة إلى الخالة فاطمة الزهراء التي لم تستسلم للعمر بعد لازالت مدللة العم موسى تسكن جوفه.

ما يكنان لبعضهما فريد، مميز، ثمين وعتيق فالبشر الضالون يبحثون لأنفسهم عن إله يعبدونه، أما القلوب الضالة تبحث عن ذلك المميز، في العيون والسنين، ولذة الاشتياق واللوعة ثم تذبح أنفسها وتقدمها قرابينا لحياة كاملة... كالعم موسى الذي وهب روحه قربانا لحب زهرائه....

قررت أن أستأذن، مبتعدة عن جلسة الغزل واسترجاع الماضي، و بدلا عن ذلك فضلت الاختلاء بفنجان شاي دافئ و ضوء القمر، على شرفة غرفتي. نسيم قوي نفخ الستائر الحليبية، ونثر أوراقا بالقرب من سريري كنت قد دونت عليها ما ظننت أنه يستحق التدوين، لم أشأ مقاطعة رقصة تانغو بين نسيم المتوسط و مذكراتي تحت الضوء الخافت الذي سلطته عليهما النجوم الستائر

المتضاربة مع دفتي الشرفة كأنها أشرعة الظروف لقصة عشق ثائر بدأت للتو، دامت زوبعة الحب هذه هنيهة، ثم هدأت الستائر لما أوصدت الدفتين الزجاجيتين، ووقعت الأوراق طريحة هنا و هناك كأنها ماتت لما حجبت عنها النسيم، شيء في هذا العرض كان يحسسني بوجود قوى خفية.

اقشعر بدني وانقبض قلبي فجأة! أحسست بوجود ما هو غير مرئي في غرفتي! بحضور غريب لم أتمكن من تحديد مكانه ولا هويته، لابد لهذا أن يكو ن وسواسا لا غير، يبدو أنني لم أتعود على هذه الغرفة بعد...ولا على هذا البيت بالرغم من كل ما فيه من ترحيب وجمال ودلال، زاوية من زوايا قلبي تضمر شيئا من الريبة والخوف.

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

أنحني لأعيد جمع الأوراق و ترتيبها، فيداعب آذاني صوت دندنة بعيد أو ربما زجاج النافذة الذي حجب جله، جعله يبدو كذلك، صوت مألوف، أعرفه و لعلني عرفت لمن يكون، أعيد فتح الدفتين برفق

(عشقي فالزين نصاحة غيوانو زاد جراحي

و اسبابي يا أهل الغرام زينات الدواح
ثلاثة زهوة و مراحة من هواهم ماني صاحي
ركوب الخيل و البنات و كيسان الراح)....

يختلي سيف على شرفته المجاورة لشرفتي، مع عوده وفانوس صغير كان ضوؤه الخافت سببا في انعكاس ظلال زخارف الشرفة على المبنى المقابل، و أغنيات شعبية كفسيفساء أندلسية يتجلجل أثيرها في حي النابوليتان[57] العتيق... ليس بيدي حيلة سوى أن أسند ظهري على الجدار ،و أحني رأسي على تلك الأنغام و صوته، هذه الروح ضعيفة جدا أمام ما لا تفهمه و ما لم تحدد ماهيته بعد! صوت كحبل من أثير يشدها إلى صاحبه، ويجعلها تسترجع ملامح وجهه وعيون النبيذ العسلية، صوت يربت بيدين ضبابيتين عليها ويدعوها لأن تغفو، وهي دون مقاومة تستسلم وترحل مع الأثير إلى مكان مجهول بين الليل والنجوم!

***

[57]حي النابوليتان:حي شعبي وسط سكيكدة

أرسلت الشمس بعض خصالها الذهبية، فردتها على غطائي القطني، و الزهر الذهبي على الورق الجداري يبادلها تحية الصبح ببريقه، لا تكف عن تمسيد جفوني و تقبيل وجنتي و جزء كتفي و ذراعي الذي لا يداريه الغطاء، عبق القهوة يرقص رقصته الماجنة في الفضاء ...صوت صنابير الحمام ...لابد أن الجميع قد استيقظ، كفاني نعاسا قبل أن تنزعج أمي و قبل أن تظن خالتي فاطمة أنني تربيت بين أحضان الكسل، أثبت عيوني في نقطة وهمية من سقف الغرفة محاولة استرجاع آخر لحظة قبل أن يخطفني النوم،لم أفلح في ذلك لكن أنغام العود لازالت تتردد في رأسي ...تذكرت... تذكرت.

لابد أن سيف بانتظارنا قال البارحة أنه سيصحبنا في جولة يعرفنا على سكيكدة ...

يظهر أن عفاف فضلت النوم في غرفة أمي! وأنها لم تقاسمني غرفتي...

منشفة، صابون خاص، فرشاة ومعجون، و ...إلى الحمام!

أفتح حقيبتي و أخرج كنزة رياضية و بنطال جينز فاتح اللون، لم أرتب كل ملابسي داخل الخزانة بعد، وهذه الكنزة تحتاج إلى كي، أقوم بتغيير ثيابي بعد كي الكنزة، أرفع شعري و أختم الطلة بحذاء رياضي، و حقيبة يد جلدية صغيرة، و نظارات شمسية قمت بتعليقها على ياقتي. لا تكتمل الطلة دون ساعتي التي أهداني إياها السلطان يوما، يقال أن هدية الساعة فأل سيء تفرق المهدي والمهدى إلى الأبد، لا يجب علي أن أتطير، كما يجب أن أتوقف عن الشرود و الإسراع قليلا... شرودي يأخذ نصف وقتي، معظم تفكيري...

طرق على الباب

- أسرعي الجميع بانتظارنا على طاولة الإفطار، كما أن سيف بانتظارنا أيضا!

- ألم تنامي هنا ليلة البارحة!

- لا!لا تروقني هذه الغرفة، انتقلت إلى غرفة أمي!

عفاف اليوم تنضح حماسا، في صوتها لحن فرح، عاد إلى وجهها بعد هجران دام طويلا، كأنها وجدت هنا ما أضاعته في سيدي بوسعيد، كأنها كانت في سجن الحومة، وحكاياته الروتينية، وتحررت الآن من كل الضغوط.

على أي حال عودتها إلينا وإلى الحياة تريحني وربما ما يحتاج إليه المرء بعد انتكاسة هو بعض التغيير فقط...التغيير! هو إنصاف القدر لنا، هو تعويض عن كل ما فقدناه وافتقدناه. انضممت إلى الجميع على طاولة الإفطار وجلست بعد قبلة صباحية على رؤوس أكابر البيت، لن يستمد اليوم بركته دون هذه القبلة التي اعتدت أن أطبعها في الماضي على رأسي أمي وأبي السلطان. لازالت عفاف ترسم تلك البسمة، كطير سنونو صغير لطيف نشيط،توظب ياقة فستانها ثم تطلب من سيف أن يأخذنا إلى مكان قريب من البحر، الآن هي مبتسمة، واهتمامها بأناقتها واضح، وتطلب أشياء محددة هذا ما صامت عنه لأيام، في نظرة أمي أرى الفرح يكبر، بجناحين من راحة، أبادلها الابتسامة وأنا وهي نفكر في الأمر ذاته.

نزلنا إلى أحد الشواطئ، الشاطئ كغرفة فاخرة لامرأة مهووسة بنظافة الأرضية يفرض أن نخلع أحذيتنا، وأن نحملها بأيدينا، رحنا نستمتع بمنظر الأصداف الكثيرة المتناثرة هنا وهناك والأحجار الملونة التي ترصع الرمال، انطلقت عفاف كبالرينة[58] صغيرة اكتشفت عالمها توا، تلاحق الجزر تارة وتهرب من المد تارة أخرى ...

- تعالي نجمع الأحجار التي لها شكل قلب...

لم أتمالك نفسي لما طلب سيف هذا ...ضحكنا كثيرا وجمعنا الكثير من الأحجار داخل قنينة زجاجية لنخلد ذكرى هذا اليوم لربما كل أحجار الشاطئ اتخذت شكل القلب لأجلي و لأجل سيف! ما بالي وهذا التفكير ! لم أفهم أبدا هذه الرغبة الشديدة في سيف، هذا الفرح الذي يلتحفني كلما سمعت صوته، والشعور اللذيذ الذي ينتابني كلما نظر إلي، ما أضعف قلبي أمامه، وروحي وعقلي؟

لا حيلة لقلب امرأة تشبهني أمام رجل يشبهه... مزاجه بحري، يعي تماما متى يثور ليأخذ بموجه تعبها وغضبها، ومتى يعود هادئا ليأخذ كل شحناتها السلبية... ما باليد حيلة أمام شخص جمع بين هيبة البحر، وطقوس ذكورية مدوخة، أراقب كيف تعلقت أصابعه بأعقاب سجائر...فتكسر الخصر تلو الخصر، بينما تنزف شفتاه الأسطورة تلو الأسطورة... طال حديثنا عن سكيكدة...عن تونس ...عما هو مهم وما ليس مهم وطال اهتمامي به، رغم أني أحاول دحض انجرافي.

- عليّ أن أنادي عفاف تأخر الوقت...

- أتركيها قليلا...

- حسن...عليّ أن أجد عيادة نفسية لها وطبيبا موثوقا، لتتمكن من متابعة جلسات علاجها

[58] بالرينة : راقصة البالي

- لا تشغلي بالك ...اعتبريها بدأت جلساتها، قال هذا وهو ينفض دخان سجائره ونظراته شاردة في مكان بعيد...مكان ينتسب للبحر.

- حسن، لن أكلف نفسي حتى السؤال من أو أين وكيف ومتى!

(اختم جملتي بابتسامة)

تغرق الشمس تدريجيا بين الأفق واليم، يتغير لون السماء ومعها لون عيون سيف، معلنة عن تأخر الوقت. لم نلحظ مرور الساعات، كأنما خرجنا من سلطة الوقت، أرواحنا حتى مع وقت متأخر كانت ترفض الرحيل. لبعض الأماكن والأشخاص في حياتنا سطوة لا تفسير منطقي لها، كسطوة هذا الشاطئ وسيف.

- تأخر الوقت، لنعد أدراجنا ...

- نعم معك حق...

عدنا أدراجنا إلى البيت بعد عشاء ساحلي، منهكين مرتخين بعدما خضعنا لجلسة شطف هموم على شاطئ لا أظن أن له مثيلا في مدينة أخرى غير هذه المدينة...

- أين سيف أترككما تعودان بمفرديكما؟

- لا خالتي،تأخر ليركن السيارة في الموقف وسيعود!

- أه، يتحجج كالعادة بركن السيارة ليختلي بسيجارة أو اثنتين، إنه بني الذي لا يتخلى عن عادته، تعاليا، اجلسا هنا

- أووووه رائحة الشاي، تبهج الروح

جلسنا إلى جانب أمي وخالتي فاطمة، كانتا تقومان بطي غسيل كثير
، وترتشفان الشاي الأحمر على مهل ...

- أين عمي موسى!لا أراه.

- في غرفته ...يتابع نشرات القنابل والصواريخ! هل توجد في غير نشراتنا غير أخبار الموت والدم والحرب.

- حسن!وأنا أستأذن سأترك عفاف تروي لكما تفاصيل يومنا...

- بنيتي ...لو سمحت مري على غرفة سيف و ضعي هذه القمصان على سريره سيوظبها بنفسه فور عودته ...

- طلباتك أوامر...

- ما عاش من يتأمر عليك يا ملاكي! تصبحين على خير وعافية ...

دلفت الغرفة ثم بسطت ما بين يدي على السرير ...مساحة سيف الصغيرة تعبق بعطر رجالي جذاب...فتح نسيم قوي دفتي باب الشرفة ونفخ في الستائر الشفافة...توجهت لإغلاقهما بعد أن تسللت برودته تحت ثوبي وانزلقت مع انحناءاتي حتى اقشعر كامل بدني،هذه الجدران المتشحة بالبياض القطني مميزة! و كذلك الكتب ذات الأغلفة الجلدية المتراصة هنا و هناك، على الطاولة إلى جانب الأبجورة...قرب السرير و خلف دفتين زجاجيتين لمكتبة عتيقة تعبق رائحة فلين ...مكتبة عتيقة لن تكون غريبة قط عن بيت عتيق كهذا البيت ...بل لنقل متحف ذكريات فريد!

لفتتني قصاصات زرقاء متباينة الأشكال ملتصقة عشوائيا على الحائط الذي يسند المكتب ويقابل كرسيه ...لا يجدر بي أن أتطفل على خصوصيات الغير! أجاهد فضولي لكنني أستسلم له في الأخير!

(عبث البشر أسوء من عبث القدر فلا تقدم أياما من عمرك كهدية فهي أثمن ما يقدم ولا يمكن أن يسترجع!)

(الناجحون دفعوا أثمانا باهظة والنجاح لا يعني الكمال كما لا يعني السعادة!)

(كما قال جلال الدين الرومي: لا تحزن فأي شيء خسرته سيعود إليك بهيئة أخرى ...)

(يعتادوننا حتى يصبح وجودنا شفافا مرتبطا بالإدراك، سيصدمهم إدراك أننا قد رحلنا ...كدم افتقد أهم عناصره ...يصبح العيش وهنا عظيما!)
كانت هناك قصاصات كثيرة تلتف حول قصاصة مستطيلة كبيرة:
(أكابيلا:

الصوت العاري بلا موسيقى

أنت العاري، أمام نفسك بلا تكلف، بلا مثالية ولا ابتسامة.

صوت، تجرد من الموسيقى فاكتشفنا كم أنه مخيف تملؤه حشرجة الزيف! تنام حباله الصوتية في دم عفن...)

أكابيلا...أكابيلا ...أكابيلا ...سأغادر الغرفة قبل عودة سيف وقبل أن يمسك بي أكرر هذه الكلمة الغريبة ...لا أريده أن يعتقد أنني متطفلة... لا أريده أن يظن بي ما ليس بي.

أعود إلى غرفتي المجاورة لغرفته، أغير ملابسي ثم أستلقي على سريري، أشغل الراديو وأثبت مرة أخرى عيوني بالسقف، ترى ما الحكمة الربانية التي تسير حياتنا! ما الحكمة في أن تنتمي دماؤنا إلى بلدين لكننا نتعلق ببلد عشنا فيه سنينا طويلة، ما الحكمة من التعود ثم الفقد والافتقاد؟ ليس لي جد تونسي ولا جدة تونسية! لكن ...أجدني أشتاق لتونس الآن، أغمض عيني و أسترجع سماء حومتنا و نجومها في خيالي...الراديو على سبيل الصدفة يردد أغنية أونريكو ماسياس.....

J'ai quitté mon pays

J'ai quitté ma maison

Ma vie, Ma triste vie

J'ai quitté mon soleil

J'ai quitté ma mer bleue

Leurs souvenirs se réveillent

Bien après mon adieu

Soleil ! Soleil de mon pays perdu

Des villes blanches que j'aimes

Des filles que j'ai jadis connues

القدر أحيانا كعاصفة رملية صغيرة لا تنفك تغير اتجاهاتها ,وأنت تغير اتجاهاتك لكنها تلاحقك ,تراوغها مرة بعد مرة لكنها تتكيف و تتبعك

(هاروكي موراكامي –كافكا على الشاطئ)

موسيقى لevanessance ...

ضوء خافت وكتب متناثرة على الأرضية ...

اعتقد جوناس أنها منقذتي! لكن منذ وطأتها لهذه المدينة، لم يمر يوم دون أن ألج فيه إلى أفكارها ...إلى أحلامها، كأنها تدفعني دفعا لذلك كأنها تدري أنني نصف جاثوم، فتجرني بسحرها لأن يكتمل النصف الآخر ...تحاول عبثا إنزال عيونها كي لا تصطدم بعيوني مخافة أن أكشف تعلقها بي، تحاول عبثا !...لكني سمعت أنفاسها المتضاربة، رأيت نظراتها التي تخفي ذلك الشيء الذي الشيء الذي تخشى الاعتراف به لنفسها، رأيت ذلك وانتهى الأمر! لابد أنها هي ...منقذتي وسجانتي في نفس الوقت... أخشى عليها مني. يبقى كلام جوناس مجرد فرضية! أبادلها كل الذي تكنه ....لا أجرؤ على إخبارها أنها واقعة في غرام نصف لعنة ...و ماذا لو أخبرها بكل الحقيقة هي لن تصدقني ...قد تظن أنني مريض نفسي، أو ممسوس كما ظن والداي ذات يوم، لن يصدق أحد هذا الجنون سوى جوناس و يوسف وسيدة اللقلق، و الجنية التي نالت حتفها بحرق من الشهاب ....لن يصدق ذلك سوى من ينتمي إلى الجنون بطريقة ما، ربما هي لا تنتمي إلى أي شكل من أشكال الجنون لكنها تملك كل ما يصيب أي رجل بالجنون، جمال نقي و روح بيضاء عميقة أنهكتها التساؤلات، خشيت أن أخبرها بكل الإجابات لأريحها فلا ترتاح، خشيت أن أخبرها فتقتنع مثلي أن جل البشر، كصوت تخفي عاهاته وتزينه الموسيقى، و ما إن تهجره حتي يصبح أكابيلا صوت عار حزين مخيف يملؤه النشاز تملؤه حشرجة الزيف....

كيف لي أن أخبرها أن أخاها موسى، ليس نفسه موسى الذي تحتفظ به في قلبها، و أنه لم يكتسب صفات أبي موسى كما أراد له السلطان ... لا، حتما هي لن تصدقني لو أخبرها أن شبحا قد التقى بها صدفة أمام قصر النجمة الزهراء[59]تحمل كتابا غارقة بين صفحاته، وأنه أخبرني بكل ما رآه، و كيف لي أن أقنعها أن التطفل هو عادة الأشباح؟ هذه الأسئلة التي تقتلني وتحييني، تبقيني عاجزا أمامها أريدها ولا أريدها، أحبها ولا أحبه

لم يفوت جوناس فرصة التطفل على حياتها لما رآها تقرأ كتاب «سوق أهراس" لليون دايرون...

جوناس ...جوناس ...صديقي! شاء القدر أن تكون الكائن الوحيد الذي يربت على أكتافي، ويساعدني ويعيش معي في قلب العاصفة. رغم شكلك الضبابي وكلماتك المشفرة، وارتفاع جسدك عن الأرض

---

[59]قصر النجمة الزهراء:أو قصر البارون ديرلانجي هو من أبرز معالم التراث المعماري في تونس وتجمع هندسته بين خصائص المعمار التونسيالأصيل وعناصر معمارية وزخرفية تنتمي إلى الفن الأندلسي، وقد بناه البارون ديرلانجي فيما بين سنتي **1912** و1922 وسط حديقة شاسعة تشرف من فوق هضبةسيدي بو سعيد على خليج تونس .يحتضن قصر النجمة الزهراء مركز الموسيقى العربية والمتوسطية.

قيد أنملة، وغموضك اللامتناهي، أين أنت الآن يا ترى! في أي عالم تسبح ...وعلى من تراك تتطفل في هذا الحين، ليتك تقدم لي إجابة أخيرة شافية وكيف لي أن أعود طبيعيا من جديد! كيف لي أن أتخطّى هذه اللعنة وأعيش كأن لم تكن قط، لو تساعدني جوناس، لو تساعدني...

أتراها منقذتي أم قاتلتي ...كيف لميسون إنقاذي ومنذ قدومها يزداد ولعي بالأكابيلا ...كلما ازداد فضولي لاكتشاف داخلها الفسيح أكثر و أكثر، إنها تدفعني لأمتزج بأحلامها، بأفكارها، بشرودها، بما تقول وما تريد أن تقول ... إنها تدفعني لأن أغوص إلى داخلها، داخل فسيح يسع كل الكون ...ليتها تدري أنني لا أكابر لكنني أخشى عليها مني ...ليتها تعلم أنها تسحق كياني ووجودي لكن مسافة بيننا لا أتخطاها حفاظا عليها.

أخشى عليها من جاثوم قد يقتلها رعبا في حلم ما، قد يوقف حياتها بانتقاله من أكابيلا إلى جسد إنسان، أخشى أن يتحول كل الذي اكتسح فؤادي فجأة إلى ظلمة معتمة، لو أفقد تلك التي أتت توا للتحول إلى أغلى ما أملك في هذا الكون...حياتي لعنة كبرى أمام ما تظن أنه لعنة ...أمام الطلياني الذي لم يقصد قتل موسى ...أمام موسى الذي خطب حبيبة الطلياني غصبا! لم تكن لعنة ...ولا ظلما، موسى نال جزاءه فقط و كان القدر عادلا بحقه...لما قام بالسطو على حياة لم تكن حياته...لكن كاترينا، اااه كاترينا، جعلت منه قديسا أمام ابنتيها متجاهلة أن حبال الكذب قصيرة متسترة على أفاعيل ابنها ظالمة صفوة بسكوتها و انضمامها إلى صف ابنها...اكتشاف ميسون و عفاف للحقيقة في وقت متأخر سيجعل من القديس شيطانا و سيفقدهما الثقة في أقرب الناس إليهما!

كاترينا حتما تخشى الأكابيلا، إنها تحاول الحفاظ على ضوضاء الموسيقى لتضمن بريق حقيقة الخدعة التي عيّشت طفلتيها فيها، هربت بهما إلى هنا، وهي تضع نقطة نهاية عن سر تعتقد أنها وحدها تعرفه.

لازال بالي مشوشا ...أيجوز لي إخبارها!

لعل ذلك محظور قد يتعرض جوناس إلى الأذى بسببي، لو كشفته! لعل القدر أراد أن يجمعني بها في جو غريب لأكون أصدق من عرفته لعله أراد أن يزيل الغمام عن حقيقة محجوبة! لعله أراد لها ألا تكره أبدا وألا تحقد أبدا، أن تبقى شفافة كبياض. لكن متى ستنجلي الظلمة عما أرادت كاترينة إخفاءه صانعة بروبغندا ملائكية حول ابنها؟ إنها بهذا شاركت في الظلم ...ظلم الطلياني! وصفوة!

الأمور كلها تسير على نحو من الغرابة التي لا تفسير منطقي لها، الأغرب من كل هذا، أن تكون صفوة نفسها صفوة صديقة الجازية منذ زمن!هي مشيئة القدر وحكمته المبهمة التي تظل أولا وأخيرا حكمة تسير جزءا من هذا الكون.

هل أحدث يوسف في الأمر؟ لا يوجد ما هو أغرب، أخشى أن تنفتح جراحه، ناحية الجازية ...هذه الحكاية متشابكة الأطراف، في كل طرف جرح غلفه جرح آخر، وصمت، إفشاء سر واحد يفضي إلى إفشاء الأسرار كلها...ماذا لو يحدث كل هذا؟

في هذه الجزائر و في سنوات الألفينات، لازالت بعض العائلات تمتهن التفرقة، و تفنى لأجل العرقية و القبلية! رغم تقدم السنين هناك عائلات رجعية التفكير ...كلنا لآدم وآدم من تراب لكن مزال هناك من يظن أنه لقابيل والآخر لهابيل، وأن قصة الدم تلك أصل الحياة ومعناها، ولولا نزال هابيل وقابيل لم يكن هنا عدل!
حاولت الجازية سنينا طويلة، بقدر مكوثها في معهد الموسيقى إقناع والديها، أن يوسف رجل شهم سيحبها ويحميها وهذا المهم! حاولت كثيرا إقناعهم أن الرسول الكريم نهى عن التفرقة، (بعض الأولياء أنانيون) أذكر لما قالت الجازية هذا الكلام:" أنا أعاني، أعاني أنانية الأهل الذين لا يهمهم سوى محيطهم الضيق، ونظرة الناس لهم! ولن تكون سعادة أبنائهم حاجزا أمام مثاليتهم الزائفة في حيز ضيق محدود، هم يضعون قوانينا، وعلينا الالتزام بها ولو كان الالتزام انتحارا لنا. "
كذلك هم ليسوا سوى أكابيلا لصوت زائف حزين...مخيف، يئسا أخيرا، ورضخت الجازية لرغبة أهلها وتزوجت رجلا غير يوسف ...كان ذلك مأساويا جدا!!

أما هو مازال وسيظل ...يقطع مئات الكيلومترات بين الفينة والأخرى ...كلما احتاج لجرعة من وجودها يسترق النظر إليها من بعيد. يراقبها تدخل أو تخرج من عملها رفقة زوجها في المدرسة الموسيقية ذلك الصرح العملاق الذي خلد أجمل لحظات حياتهما، صعب جدا ذلك الشعور، والاهتمام بعدما مات الأمل ...لكن يوسف أحب الجازية لدرجة يكفيه فيها معرفة أنها لازلت موجودة، حية ترزق تجمعهما سماء واحدة ...أن يرى وجهها مبتسما ...سعيدا. يكفيه أن يعيش على أثر الجازية، وطيفها، وتلابيب لحظاتهما معا ....

ما يهم الآن! كيف سأشرح الأمر للجازية! وكيف سأطلب منها إقناع صفوة بالقدوم ومقابلة ميسون وإخبارها بكل شيء!

ما الذي سيتغير إذا علمت ميسون بالأمر! أتراها سترتاح ؟!أريد رؤيتها مرتاحة فقط، ذلك يكفي ...ما لا يمكنني قوله، أقوم بفعله حتى وإن عذبنا القدر ولم يجمعنا كما فعل بيوسف والجازية...وستكون هذه الخطوة تمهيدا لأن أخبرها بحقيقتي، سأريحها قبل رحيلي عن هذا العالم ...سأُشفي ظمأ قلبها بإخبارها أنني تذكرت أغنية شعبية في أول يوم اصطدمت فيه بعيونها.

"ما صابني قومري ونطير نعلي فسما ونرقى مولات العين الزرقا"

دونما قول كلمة واحدة فلأقدم لها سعادة دهر في أيام معدودات، لم لا أترك روحي وجزءا مني لها و لأهلي...أتزوجها؟ أجل أتزوجها وننجب ابنا معا !!...هه زواج.... أخشى أن وقتي قصير جدا ولن أحظى أبدا بهذا الزواج....

أسترجع تلك الملامح حادة الجمال في الهواء، أقوم بلمسها، أتحسسها، أزج أصابعي بين خصلاتها المعتمة، إنها معتمة جدا، أغوص بداخلي إلى عمق أبعد، أغمض عيني!

...فجأة يتبخر العالم من حولي، تتبخر الغرفة والسقف والسرير، أستشعر وجهها الذي يتحول تدريجيا بين أناملي، من سراب إلى حقيقة! يبدو واضحا جدا بين يدي! أيمكن للخيال أن يسدل رداءه على الحقيقة ليحل مكانها! أخشى أنني بين أصابع فخ "أكابيلا" جديد أتمنى ألا تخوض بي لعنتي إلى غمار فجوة أخرى! ولا تعذبني أكثر "أكابيلا" انتشليني فورا كما ينتشل الموت الروح وعودي بي إلى عالمي... أفتح عيني متوجسا ...تلك الملامح المالطية مغمضة العيون كأنها تغط في نوم عميق ...جميلة ...طاهرة...بريئة... تفتح عيونها فجأة ...صراخ يدوي أرجاء الغرفة، غرفتي أم غرفتها! بل إنه كل البيت ...صراخ متقطع، شهقات مختنقة ...كابوس لابد أنه كابوس، أحاول فتح عيوني ...لكنني أفشل كلما حاولت ولازال وجه ميسون يواصل الصراح بثغر مفتوح وعيون خائفة كأنها تترجاني أن أبتعد ...أريد أن أبتعد لكنني لم أفلح ...ظل سريع خاطف قام بانتشالي بيدين باردتين، ليختفي كل شيء ويظهر سقف غرفتي من جديد!! ...

لازال الصراخ متواصلا!!، إنه صوت ميسون لازال يدوي أذني ...أخشى أنه لم يكن حلما ...لازال ذلك الظل السريع يقفز من ركن إلى ركن ثم يبرز منه وجه ثم جسد ...جوناس !! لا يأتي في مثل هذا اليوم !! ما الذي تغير؟

جوناس! أصبح أكثر وضوحا ...وأقل ضبابية ليس كما في السابق أبدا ...توقف البكاء والصراخ فجأة كما تهدأ زوبعة... تشوش فؤادي وانقلبت موازين حواسي كان من المفترض أن أسد أذني كي لا أسمع صوت ذلك الصياح، لكنني استطبته كغذاء لجوعان ...أو كماء لظمئان!

أتمنى أنه كابوس يتناقلني بين مده وجزره ...

- ليته كان كابوسا !!...إنها حقيقة، أسوأ حقيقة ...اللعنة نالت من روحك ويبدو أنها تجرك إليها يا سيف! أكثر اللعنات سوءا ...ستجعل منك أسوأ من سفاح ...عفنا بل أكثر عفنا من ساحر أرعن! كدت تقتل ميسون يا سيف ...كادت أن تصبح مثلي روحا بلا وعاء! كدت أن تفقدها! ...

ارتعبت وفي ذات الوقت تعجبت! أن يوجد على وجه الأرض ما هو أشد رعبا مني ...ومن أي طيف إن كان صالحا أم سفاحا ...من شيطان ...كنت أشد إرعابا منه ...خفت كثيرا لكنني تذكرت أنك سيف صديقي، تمكنت من إنقاذك وإنقاذها هذه المرة، لكن في مرة قادمة لا أدري ماذا سيكون

...ما كان الحب هو الحل كما كنت أفترض بل الحب هو ما زاد الطين بلة... كادت ميسون أن تجعلك تضع أول خطاك، وتجعل منها أول ضحية ...استجمعت قواي ورباطة جأشي، سحبتك إلى جسدك ثانية ولا أدري كيف اكتشفت طريق الخروج منه إلى ميسون !! ...لم تلج إلى حلمها بل ولجت إلى غرفتها، إلى حقيقتها كنت أمامها تماما، قريبا من أنفها وفي أبشع صورة ...نصف روح ونصف جاثوم ...نصف سيف ونصف لعنة، لابد أنها تعرفت إليك ...وقد تظن أن ذلك كان مجرد كابوس.... كابوس يقظة ...(قال جوناس برعب شديد) .

-يبدو أنني سأرحل يا جوناس ...عن أهلي وعنك صديقي ...وعن أول فتاة رف لها قلبي أخشى أن محبتي لها قاتلة أخشى أنها أتت إلى حتفها بنفسها ...ما عساني فاعل الآن!

- لن أتركك يا صاح! لن تضيع أؤمن أن القدر حبسني على الأرض لتأدية مهمة ما غير الانتقام ممن سلبني جسدي ...لابد أنك أضحيت مهمتي ا لآن...سألت أطيافا غيري، سألت الجن و لم أجد إجابة شافية عن ما أنت فيه، لذا سأخترق المحظور و أسأل سيدة اللقلق، قد تعاقبني ولا أدري ماذا سيكون العقاب، لكن حينها سأدرك أن القدر من أراد لك أن تكون جاثوما! وإن ساعدتني فهذا يعني أنه امتحان يستلزم جهدا عظيما... الرسوب فيه يعني عقابا أبديا والنجاح فيه جائزة كبرى، على شاكلة العودة من الموت...

يختفي جوناس ويتلاشى ليعود إلى العدم.

ميسون ...ميسون ما الذي حل بها! أنتفض من سريري وأتجه إلى غرفتها، جبيني يتصبب عرقا أشعر بقطرات العرق تعبر وجهي نحو شفاهي...

-ميسون ...ميسون ...

تنظر إلي مشدوهة كمن تذكر شيئا ما ...شيئا مخيفا مرعبا، تتكور بين ذراعي كاترينة و أمي تبلل منشفة و تمسح بها على وجهها، وجع غريب يجتاح قلبي ...سأتسبب لها بالموت "من الحب ما قتل !!" خيانة، فقدا وفراقا لكن حبي قد يقتلها فزعا هه، تبا للحياة ما أشد تعقيدها!! أرغب في الضحك في الوقت الذي يتوجب فيه النحيب.

الجميع ...يحاول تهدئتها وطمأنتها!

-لا تنامي على ظهرك ...لطالما نهتك لذلك، إنه جاثوم قد نزل على صدرك !!

جاثوم قبضت هذه الكلمة خوانقي ...جاثوم

-لا!!!...

رفعت رأسها نحوي ...كانت تريد قول شيء ما، وأنا الوحيد الذي فهم ما أرادت قوله... قوليها يا ميسون ...لم يكن جاثوما بل كان سيف...هه بل سيف هو نفسه الجاثوم ...

- لا عليك حبيبتي سأنام أنا وأمي كاترينة إلى جانبك الليلة. أليس كذلك أمي؟
- طبعا!!

- شكرا لكم وأتأسف كثيرا! لا أدري ما كان ذلك بالضبط ...كنت أختنق ...شعرت بروحي تتسرب وتكاد تفارق جسدي ...خفت كثيرا.
- استعيذي بالله حبيبتي، إنه خير حافظ ...يقال أن الجسد لما يعاني من علة ما أثناء نومه، يرسل الدماغ رسالة على شكل حلم مخيف كي يتفطن الإنسان و يعود إلى وعيه لعلك كنت ظمآنة جدا حبيبتي ...اشربي القليل من الماء ...

لم أستطع سؤالها عن حالها و التظاهر بأنني متفاجئ ...فأنا أدري ما حل بها أكثر منها هي نفسها ...أعود إلى غرفتي و أوصد الباب ...أطرافي ترتعش و دموعي تناور كبريائي ...ثم كالمطر تنزل بغزارة ...أرجوك يا الله لعلني قمت بخطيئة نكراء جعلتني أستحق كل هذا، فسامحني و اغفر لي و لا تذقني عذاب الفقد ...لا أريد أن أتحول إلى كائن بين الوجود و اللاوجود ..لا أريد أن أتحول إلى مسخ سفاح ...أريد أن أموت إنسانا كما أنا !!... أتكور على نفسي كجنين ...ليتني بقيت جنينا في بطن الزهراء ...اهتديت أن بطنها هو أأمن مكان في الوجود ...بطن امرأة هو أأمن مكان !! ليتني أسكن بطنك يا ميسون، فتلديني و أعود إلى الحياة و إليك من جديد ..أنا ميت ...ميت ا لآن !! مت قبل أن أتمكن من مصارحتك ...حتى أنه ليس بإمكاني مصارحتك ...
ما الذي سأفعله!! ليس أمامي سوى الدعاء ...وانتظار جوناس ...الانتظار كسجن مع وقف التنفيذ، كلحظات من حكم عليه بالإعدام وينتظر بين سقوط المقصلة، وفصل الرأس. تعذيب نفسي أساسه خشيتنا من المستقبل ...

الانتظار قد يكون أسوأ في الحقيقة مما قد يخفيه القادم، فكيف سأشغل نفسي عنه، بالنوم لساعات طويلة كما يفعل العشاق؟ أم بحبوب مهلوسة كما يفعل اليائسون؟ أم بالانتحار كما يفعل الجبناء؟ ما الذي سأفعله الآن وأنا عاشق يائس جبان؟

أرفع سماعة الهاتف، أتّصل بأقرب صديق ...كمن يطلب رقما للنجدة، أتشبث بمواساة يوسف لي رغم إدراكي أن المواساة لن تجدي نفعا، ولن تقدم أو تؤخر شيئا، يوسف يدرك ذلك أيضا لكنه لبى ندائي له على الفور في محاولة عبثية منه لإثبات نظرية "الصديق وقت الضيق" و ما هي إلا نصف ساعة حتى رن هاتفي ليخبرني أنه أمام الباب، لم يشأ طرقه أو قرع الجرس، فالوقت متأخر جدا.

راعى يوسف مسألة تأخر الوقت على خلافي، فخوفي الشديد جعلني ألجأ إليه دون التفكير في أي شيء آخر ...أرى أن حظي في الحب بشتى أشكاله كبير ...لكنه خانني بحيث أنني لن أستطيع مواصلة حياة طبيعية والاستمتاع بها على أكمل وجه، لن أتمكن من الاستمتاع بحب من يحيطونني ثانية ...حتى صديقي جوناس ....

"لا أدري إن كان الحظ مرتبطا بعدد الأيادي التي تمتد لنا في ذروة الضعف، ذروة الاستسلام والزهد في بذخ العمر، ولا أدري إن كان أحد مقاييس الحظ كم الأحبة الذين يلتفون حولنا لقراءة تعاويذ الأمل على رؤوسنا بينما قطرات الإحباط واليأس التي عجن بها خبز قدمته لنا الحياة قد فعلت بأرواحنا ما فعلت، وتسللت إلى أطرافها وزواياها، وكل ركن فيها قد ظننا ألا أحد قد يتسنى له الوصول إليها، التفافهم حولنا ليس بالضرورة مقياس حظ لكنه ذَنَبٌ من أذناب السعادة، وسخرية نعزي بها أنفسنا ...في حرب ضروس للاستمرار بالحياة.... " أقص هذه القصاصة وألصقها على الجدار رفقة القصاصات الأخرى في انتظار صعود يوسف..."

هكذا قدمت لي، وعزتني الحياة التي سأرحل عنها قريبا، يوسف الذي أخبرته سابقا بسري ذلك دون خوف، صديقي الذي أتى إلي مسرعا، يواسيني و يحاول معي القضاء على مصيبتي ...مصيبتي الفريدة ...
الأكابيلا التي تكشف ما يتزين بموسيقى الناي والكمان والتشيلو...مصيبتي التي تكشف ما تخفيه الصدور ...الهواجس والأفكار والأحلام، لكنني لم أضع في الحسبان أن ما ظننته قدرة ولعبة مميزة قد لا يتقنها غيري ...هي بداية اللعنة التي بعدها قد أصبح جاثوما...
- جاثوما ...جاثوما ...سأصبح جاثوما يا يوسف ...بسببي اليوم كدنا نفقد ميسون...

- هون عليك يا صاح ...هدئ من روعك، أخبرني أولا ماذا جرى وبالتفصيل لعلنا نجد حلا بإذن الله...أخبرته كيف خرجت من حلمي إلى غرفتها و هذه المرة تحولت إلى ذلك الوحش الذي كاد يخنقها لولا تدخل صديقي الشبح ....

مرت ساعات الصبح الأخيرة، دون أن نشعر بها حكيت ليوسف كثيرا عن هذا الجنون الذي اضطرني القدر لمواجهته، ما الذي سأفعله مع ميسون، وكيف أتصرف حيالها الآن وقد أصبحت في خطر.

هيامي بها أصبح خطرا عليها وليس باليد من حيلة، فهذا خارج عن سيطرتي تماما كالأكابيلا. عمّ صمت بثقل هم كبير يطبق على أنفاسي ...كأنه آخر الطريق، ولم يبق مكان للأمل ولم يعد هناك مجال لشيء سوى انتظار المجهول ... مجهول مخيف... مريع... مهلك.

- حق ميسون أن تخبرها الحقيقة كاملة.فإذا تكرر الأمر سيخف فزعها وهي على علم أن ذلك لم يكن إلا أنت! وأعتقد أنها ستتمكن من مقاومة الأمر.

- وجهة نظر جد سليمة ...لكن كيف سأفتح معها الموضوع، وأخبرها بكل هذا؟ كيف سأخبرها بما لن يتمكن عقل عاقل من تصديقه؟

- إذا كان ما تكنان لبعضكما قويا كفاية، فستعود إلينا سيفا كما كنت في السابق ...ثق بهذا أظن أن وجهة نظر صديقك الشبح سليمة إلى حد ما ...أرسل القدر ميسون لتقدم إليك الأمل ...الأمل هو كل ما تحتاجه هو ما سيجعلك تتشبث بالحياة!

- وكيف سأبدأ!

- ابدأ وأخبرها بما كنت ستخبرها ...بحقيقة موسى والطلياني وصفوة! وحتما ستسألك كيف علمت بكل هذا ...
- سيكون ذلك صعبا جدا على فتاة مثلها متعلقة كل ذلك التعلق بأخيها ...مقتل موسى سلب كل العائلة جل سعادتها وأغرق ميسون وعفاف في التساؤلات، الحزن، والفراغ.

ما الذي جعل الطلياني يكره موسى إلى ذلك الحد! لينقلب التساؤل إلى ما الذي جعل موسى يكره الطلياني إلى ذلك الحد !؟ أما كاترينة فكل ما تخشاه هو اكتشاف ابنتها حقيقة أخيهما ...لن يؤذي هذا إلا كاترينة...

-افعل ما تراه صوابا مهما كان صعبا ومرا فهو صواب ... نتائجه كفيلة بأن تصوب كل شيء بعد ذلك...وفي الأخير لم يكن موسى يستحق كل ذلك المجد من أهله، كان ظالما تلك الحقيقة ليس إلا.

ثم عاد الهدوء من جديد، متأبطا الأرق والتفكير ...التفكير في الحاضر أو الماضي أو المستقبل كله كسم يسري بطيء المفعول، أو كثقب أسود يقوم بامتصاصنا شيئا فشيئا يمتص عقولنا ...ثم أجسادنا لينتهي بأرواحنا أخيرا ...

"كان ذلك صديقي قبل أن يكون لمطرقة الغدر دور في قصتنا، لكنني اخترت أن أكون مغدورا لا غادرا، وليظنوا بي ما شاءوا فلست مضطرا للتبرير أبدا"

مر أسبوع كامل على مزاولتي لعملي الجديد في سكيكدة، الصالة الرياضية هنا أكبر من الصالة التي كنت أرتادها في سيدي بوسعيد بها آلات رياضية متطورة أكثر، أظنني تعودت على الوضع ، كما أنني ألفت متدرباتي الجديدات بسرعة، هن مطيعات و جديات،كما أن بعضهن متحمسات جدا للحصول على أجساد جديدة، فكرة الأجساد الجديدة أيضا خارقة، هن لا يبحثن عن أجساد جديدة بل حقيقية دون إضافات، دون دهون، دون زيادات ...أرتدي بدلتي الرياضية الزهرية و حذاء R-Maxالرياضي خفيف جدا يلغي شعوري بوزني، ليصبح المشي به طيرانا ممتعا! أرفع شعري نحو الأعلى دون إلقاء نظرة على المرآة ...السادسة والنصف صباحا. وقت صادق ومثالي للغاية.

أخرج، وأغلق الباب برفق كي لا أزعج أحدا، الوقت لايزال مبكرا...

أسبوع واحد كان كافيا لي، لأوطد علاقتي بالطرق، والمتدربات، والناس. أحببت هذه الدروب الضيقة، نحو القاعة الرياضية، بدأت الاعتياد على هذه البيوت الصغيرة، الزهور، الشرفات و عصافير الدوري ...أتذكر حديث أبي السلطان عن الطرقات الضيقة و الطرز الفرنسي ...هي تبدو ضيقة بالنسبة لجيلنا، لكنها دقيقة بالنسبة لجيل سابق، وجدت لتكفي عربتي حصان لا أكثر و لا أقل، أما الآن فهي لا تكاد تحمل سيارة واحدة ...

أصل إلى الصالة أخيرا...

صباح الخير ...

أرى أنكن قمتن بترتيب الأجهزة وبالونات اللياقة، وهذا يعني أننا مستعدات نفسيا، وراغبات في الحصول على أجسام جميلة، «موسيقى"، ولنبدأ بالجري قليلا من ثم بحركات التسخين...

أسعى دائما إلى دعم متدرباتي نفسيا، أركز على أن المرأة كائن حساس هش داخليا. أما الغريب في هذا الكائن أن نقطة ضعفه هي نفسها نقطة قوته، هشاشته هي نفسها صلابته... فأنوثتها قوة و جمالها قوة، حنانها و سذاجتها و طفولتها كلها قوة ...لنكن قويات ولن نتعب في مرحلة التسخين....نجري بوتيرة بطيئة ....نزيد السرعة الآن ....بوتيرة بطيئة ....لنتوقف الآن...أوقف الموسيقى، لنستلقي على أرضية الصالة و نفكر في اللاشيء!
اللاشيء فقط!

قطع تفكيرنا في اللاشيء رنين يتعالى شيئا فشيئا ...هاتفي!

- سيف! ألو، صباح الخير...

-ألو!! صباح النور ...ميسون ألديك ما تفعلين بعد الدوام !؟

- شراء بعض المستلزمات فقط ولن يأخذ مني ذلك وقتا طويلا !!

-هناك حفل موسيقي على الساعة السادسة مساء لصديقة قديمة أرسلت إلي بطاقتي دعوة ...ففكرت في دعوتك واصطحابك...

(تثاقلت محاولة إخفاء حجم فرحتي)

- موافقة!!

-سيرافقنا يوسف ...سأكون بانتظارك في المنزل مساء ...ننطلق من هناك!
- اتفقنا إذن ...نلتقي مساء.

أغلق الخط. ..يالسعادتي ...ربما هي الصدفة، وربما استطاع بشكل ما أن يحزر أمنيتي في حضور حفل موسيقي حتى دون أن يكلف نفسه سؤالي، رجل مميز بإمكانه خلق السعادة لأجلي...يفهم الذي أريده حتى دون أن أتفوه به، ويختار أنسب وقت لذلك...

وقع قلبي بين يديه وهذه حقيقة، أما إعجابه بي فأخشى أن يكون مجرد وهم صنعته مخيلتي...وكل هذا الاهتمام ليس سوى أن سيف رجل لطيف بالفطرة ...أواصل التدريب إلى أن اقتربت نهاية الدوام ...يكفينا تدريبا لهذا اليوم ...هيا اجتمعن حولي لنقوم بتمارين الاستطالة ...حتى نتجنب آلاما في العضلات فيما بعد ...هيا هيا....

بعد انتهائي من عملي أقوم بإعادة ترتيب حقيبتي ...أغادر الصالة مسرعة إلى البيت، أفكر في ما الذي يمكن ارتداؤه لحضور حفل موسيقي ...يجب أن يكون أنيقا و مناسبا و كلاسيكيا ...أصل إلى البيت ...ألقي التحية على أمي و خالتي الزهراء...

-أمي... أنا مدعوة مساء لحضور حفل موسيقي رفقة سيف

- طيب حبيبتي ...ألن تأكلا شيئا قبل ذهابكما ؟!

-اسألي سيف أما أنا فشهيتي للأكل منعدمة...

منعدمة من شدة حماسي لحضور حفل موسيقي. وإحساسي أن سيف لم يرد اصطحابي هناك اليوم، إلا ليقول لي شيئا ما ...أفتح باب خزانتي لأختار منها...

كلاسيكي ...كلاسيكي ...كلاسيكي أنيق فخم كالكلاسيكي الذي ترتديه الملكة رانية ...أو أمل كلوني ...للأسف لم أمتلك مثله بعد لذا سأكتفي بهذا القميص الأبيض الحريري بأكمام الدانتيل ...وبنطال أسود بخصر مرتفع ...بعد حمام ساخن أقوم بتصفيف خصلات شعري ...ثم أرتدي ما قمت باختياره و أختم الطلة بأحمر شفاه عنابي ...كعب عال ...ورذاذ عطر باذخ في الهواء تركت ذراته تتحسس طريقها نحو عنقي ...اقتربت منها ...التفت حولي و بادلتها العناق.

-أصبحت جاهزة الآن...

بابتسامة خفيفة رفعت غمازته، و عيون براقة أبدت إعجابها ..أغمضها لبرهة و أخذ نفسا عميقا ...كأنه يحفظ عطري في مكان ما داخل صدره ...أومأ لي سيف برأسه ..

-حسن...لننطلق ...هذه بطاقتك!

فتح لي باب السيارة ...لم يعتد أن يفعل! ...بدوري لم أعتد أن يفتح أحدهم لي باب السيارة فشعرت بحرارة تنبعث من وجنتي ..وهذا لا يحدث معي إلا في حالات الخجل أو الإحراج ...لم يكن هناك داع للخجل أو الإحراج لكن أغلب مشاعرنا تكون غير منطقية أمام أشخاص نهتم لأمرهم وخاصة حين يبادلوننا الاهتمام...

تقاذفتني الأفكار فيما عيوني شاخصة في انعكاس وجهي على زجاج نافذة السيارة، ربما لم يشأ سيف إفزاع شرودي ...بادلني الصمت...وربما بادلني الشرود ...توقفنا أمام مبنى كبير كتب على واجهته THEATRE""

نزلنا...

*تعالي..

-إلى أين!

*إلى الكواليس !! سأعرفك بصاحبة الدعوة

-ألن ننتظر يوسف ؟

*أظن أنه قد سبقنا إليها...

-حسن...

سرنا تحت ضوء الأروقة الخافت ...إلى أن وصلنا أخيرا إلى غرفة في أخر الرواق ترك بابها مواربا ,كباب قلبي لشيء ما يشارف على الوقوع ...

طرق سيف الباب طرقا خفيفا ...

*تفضل...

انفتح الباب ..و بصوت ناعم هادئ عبرت عن سعادتها لرؤية سيف...

*سيف ...كم اشتقت لك ...تفضلا تفضلا...

سيدة ربما نزلت من الجنة ...شقراء بعيون واسعة امتدت ابتسامتها ..لرؤيتنا و ما لبثت أن اختفت لما وقعت عيناها على يوسف، الذي وقف أمام الباب يستمع و ينظر إليها انتبهت لمجيئه قبل أن تنتبه هي ...وقف كمن وجد أخيرا بقعة ضوء وسط العتمة، مشدوها شاردا، كأنما تجمد بمجرد النظر إليها فقط ....
أما هي تلعثمت عدة مرات كمن يتعثر بذكريات توقف الزمن عندها كأنها ارتطمت بصخرة الذاكرة التي لم تتمكن من تجاوزها...ثم انقطعت عن الكلام... فجوة الصمت التي تحدث بين عالمين.

- أهلا يوسف ...تعال ...تقدم

-وبك ميسون ...شكرا ...أو...أو سأسبقكم إلى الصالة

* سأخرج قليلا وأعود إليكما ...جازية سأتركك تتعرفين على ميسون

- طيب... سيف

جازية لن أعطلك عن التجهيز لحفلك ...سأكتفي بالصمت و بمراقبتك تقومين بذلك ...أنت جميلة كالقمر على فكرة.

شكرا لك ميسون ...و أنت كأميرة من أميرات الحكايات تبدين مختلفة جدا، وساحرة جدا، و يبدو أن سيف قد وقع في هواك ...فلا تتجاهليه أرجوك ...هو شخص طيب و لن تجدي مثله في هذا الزمن...

نعم...

اكتفيت بهز رأسي و قول "نعم " لم أكن متأكدة مما قد يكنه سيف لي إلى غاية هذه اللحظة، "نعم "تلك التي تدل على الاحتمال ...كما فاجأتني تلك البديهة ...و الجرأة...لم يبد أنها مهتمة جدا لأمري ...هي تعيش ماض ما، لحظة تحنط عندها الزمن وأحدث طفرة في حياتها، ولا تأبه لوجودي...وقفت أمام المرآة تجهز نفسها...

فردت خصالا ذهبية طويلة على كتفيها، ولم يكن أمامها سوى الاستنجاد بمستحضرات ملونة تخفي بها دخان الغيوم الرمادية التي تراكمت تحت عيونها، أما قلم الحمرة العنابي، فقد تشبث بأناملها وعانق شفاهها تاركا اثر حياة عليها، كان عليها أن ترسم لوحة حياة كاذبة على وجهها، و تكسو جسدها بأناقة باذخة و توشحه بدانتيل أسود، من حسن حظنا توفر مواد التجميل التي نخفي بها عاهات الذاكرة، وندوبها على وجوهنا، أرادت أن ترصع عنقها بلآلئ بيضاء ناصعة كأنها حبات الأمل الوحيدة التي تخرجها في أهم أيامها و تتزين بها، لكن الحبل الرقيق الذي يربط بين الأمل و الأمل، و الحبة و الحبة، و اللؤلؤة و اللؤلؤة، كان هشا جدا، فتمزق، و تمزق معه حبل أفكارها و تناثر اللؤلؤ في كل زاوية، فهمت كالكفيفة تتحسس آمالها و تبحث عنها إلى أن شعرت بالملل بدل اليأس و تركت لآلئها تتبعثر، وحيدة تنزوي في غرفتها، و توجهت هي إلى المسرح ...و اكتفيت أنا بمراقبتها و النظر إلى اللؤلؤ المتناثر المشتت على الأرض...شيء قوي منعني من أن أنحني لمساعدتها في جمعه ...وهي لم تكترث لذلك كأن كل واحدة منا كانت وحيدة في عالمها ...شعرت بها شاردة، ضائعة، وعصية، عصية على أشياء كثيرة بقدر ما هي هشة ولينة.

أتى سيف و يوسف لاصطحابي إلى الصالة أين يجتمع حشد غفير ...جلسنا على كراسي اكتست بلون عنابي كما تكتسي العرائس في القديم ...ظللنا نراقبها من بعيد، أسندت ظهرها إلى الكرسي و عانقت بفخذيها المتشحان بالسواد،التشيلو الكبير كعناق بين حزن و أسى بحذو كعب عال اسود مثلهما انطفأت الأنوار...

ضوء أصفر ضئيل، سلطت بقعته و توسعت شيئا فشيئا على الفرقة... أشار الأوركسترا ... صاح التشيلو، فرت دموع الجازية ونزل كحل عينيها على وجهها اجتمع صراخ العالم وصراخها في سمفونية تعلو كلما ذبحت أوتار الكمان والقيثار و التشيلو، و أصابع تدب على أصابع بيانو وتدوس عليها فيبكي أنينا ... تركت للآلئها وراءها فهي الآن ليست على يقين كبير أن جنون الأصوات هذا قريبا سينتهي، لكن بالفعل توقف كل صوت، و خيّم على القاعة صمت ينخر الآذان بعد صخب... ينخرها... فالصمت هو درجة قصوى لصراخ حاد تحت صوتي لمخلوقات لا نراها ولا نشمها ولا نلمسها كما هو درجة هدوء، أبعد عن الراحة ليزرع الريبة وأبعد عن الريبة ليزرع الراحة، فيتوقف مؤشره بين البينين ... لكن صوت تصفيق يوسف، كان كالنور أبعد عن الجمال، وكأمل كبير بعيد عن كل اللآلئ ابتسمت له ثم انحنت وأسدل الستار...

- موهوبة...لازالت على عهدها لم تتغير...

ردد يوسف هذه الجملة بصوت يملؤه الحنين

-قصة واضحة دون أن تحكى ...فلم أشأ أن أسترسل وأسأل سيف عنهما ...اكتفيت بمراقبة المارة رفقة يوسف، منتظرة عودة سيف من الكواليس...يمر بي وجهان مألوفان...بل وجهين لا يمكن نسيانهما...الطلياني وصفوة! انتفضت من مكاني دون وعي ...

-توقفي ...توقفي

-

-توقفي ! لا تتسرعي ...أتينا لأجل هذا اليوم...

-ما الذي تقصده...

-اهدئي ...ستجلسين مع صفوة والجازية في مقهى قريب ...صدقيني سترتاحين، ثقي بي.
كلام سيف مبهم وغريب ...لكنني انسقت وراء فضولي ودهشتي و عبارة "ثقي بي " ما الذي جمع سيف بصفوة ...والطلياني ...أمسك يدي ..شبك أصابعه بأصابعي ...تسارعت دقات قلبي ....

-اهدئي...

سحبت يدي برفق "أخشى أنه حلم...حلم حقيقي جدا "

-حقيقة ...مثلك تمنيت لو كانت حلما...(قال سيف في نفسه)

اصطحبني سيف رفقة يوسف إلى المقهى المجاور ...الجازية وصفوة مستغرقتين في الحديث وبمجرد أن انتبهت لي الجازية، انسحبت وانتقلت إلى طاولة أخرى، ثم لحق يوسف بها تقدمت شيئا فشيئا من صفوة...

-أين الطلياني !؟ من الواضح أنك سرعان ما وجدت بديلا عن أخي ...لم يدر الحول بعد !!

زمت شفاهها ...

- مساء الخير ...مر وقت طويل -ارتشفت من فنجانها-... أمين هو خطيبي الآن...

-أنت ...وقحة...هذه حياتك، أنت حرة بها، لكن ما الذي فعله أخي معك كي يستحق قلة الوفاء...تدركين جيدا أن أمين كان سببا في مقتله...

-أجل لكنه لم يقتله...لن أعتب عليك ميسون، فقد اتضح لي أنك وعفاف لستما على علم بشيء مما حدث معي...

بقيت أتطلع على شكل خاتم خطبتها من الطلياني ...تذكرت يوم خطبتها من أخي، كان سعيدا جدا ...سعيدا جدا....

- وما الذي حدث ؟! ما الذي لا أعرفه؟

-اجلسي...اجلسي ...

-موسى ...كاترينة ...حتى أمين كلهم أجرموا بحق حياتي ...جميعهم أجرموا بحقي، (أشعلت سيجارة قبلتها وطبعت عليها أحمر شفاهها، ثم أطلقت سحابة مثقلة برائحة التبغ وعطرها الصارخ).
كانا صديقين حميمين ...لم أنتقل بعد حينها إلى مدرسة الموسيقى في الجزائر... أمضينا معا وقتا احتضنتنا فيه سماء سيدي بوسعيد و بحرها برغم كل الظروف السيئة ...الظروف السيئة كانت قد نالت مني و أمين فقط ..موسى كان ميسور الحال طالبا مجتهدا كان نقيا جدا ...ثم تغير ... وتغير كثيرا ...لما تغيرت نظراتي لأمين ...لم يمنعني شيء من أن أعلن ما أصبحت أكنّه فجأة لأمين.

في يوم كنا نجلس فيه على الشط ...ندخن معا ...ما أعلنته كان حقيقيا جدا، ولاشك في أن موسى تساءل كثيرا ما الذي وجدته في أمين ولم أجده فيه؟ لم يكن بإمكاني التحديد، ليكون بوسعي تقديم إجابة شافية، فلم تكن المشاعر يوما ملك أحد فهي سيدة نفسها، تتحكم بنفسها و لا أحد بإمكانه التحكم فيها تأتي متى تشاء و ترحل متى تشاء...لكن شخصا مثل موسى إذا أراد تحكم فيما شاء بما شاء وكيفما شاء ...أتذكرين سعاد ؟!

-أخت الطلياني –رحمها الله-
-حتى سعاد المسكينة ...راحت ضحية جنون أخيك و صمت أمك ...كاترينة التي تخرس صوتها كلما ارتكب أخاك عملا فضيعا ...رحمها الله ...في الفترة التي كنت أتواعد فيها أنا وأمين...انسحب موسى وقل تواصله بنا ...ثم اكتشفت أنه يواعد سعاد.
-سعاد!!
سعاد...أخت خطيبي أمين الوحيدة، و كل ما بقي له بعد وفاة والديه، (أخذت تتلاعب بخاتم خطبتها و تقوم بلفه على بنصرها)، تعلقت بموسى ونجح في إقناعها في أنه لن يتخلى عنها أبدا ...جعلها تقتنع بطريقة ما، كان يمكن لرجل مثله أن يصنع لها جنة على وجه الأرض...كانت تظل تردد على مسامعي اختارني من بين كل النساء ...كما أنه أومأ بالإيجاب لما سألته إن كنت سأكون أم أولاده مستقبلا ...أم أولاده هه !!

خشيت أن أخبر أمين عن تلك العلاقة بين موسى و أخته ...علاقة لم أرتح لها أبدا كنت أدري بطريقة ما، أن موسى كان يخطط لشيء...أدركت أنه مقتنع تماما أن أمين قد خطف منه حبيبته فأراد أن ينتقم ربما، لم يسمح أمين لنفسه أن يشكك بنظرات صديق عمره ...صديقه الذي لا يحب أن تسرق منه الأضواء،ليصبح هذا شيئا مرضيا خطيرا يقوم به دون أن يأبه لسيرورة حياة الغير ...على حسابي و على حساب أمين و سعاد وحتى على حسابك أنت و عفاف و أمي كاترينة، أراد أن يكون الرقم واحد ...بهي الطلة متأنقا بشهادة عليا و حبيبة كما يريد ...يرسم مخططاته بدقة ثم يبني أحلامه و لابأس في تدمير أحلام الغير إذا اقتضت الضرورة ورغبته ...فالغاية بالنسبة لموسى تبرر الوسيلة...

لكن القدر فاجأه بما لم يكن في الحسبان... حملت سعاد منه ...أرادت حقا أن تكون أم ابنه ...لكنها فوجئت برده، صعقت برفضه لها، كأي إنسان حقير نعتها بالزانية وشكك في نسب الخطيئة التي حملتها بين أحشائها، خطيئة كبرى ....وكما أخبرتك لطالما كانت المشاعر سيدة نفسها، يصعب التحكم فيها ...وقعت سعاد ضحية لغبائها كما كانت تقول، وضحية لأنانية موسى ...أتدرين ؟!...لم يكن لها أحد تلجأ إليه سواي فلم أجد حلا سوى التكلم مع كاترينة.

لأن موسى استنكر و رفض النقاش معي في هذا الأمر ...توجهنا ذلك المساء إلى أمي كاترينة ...توقعت قلبا حنونا سيقف في صف سعاد لتتخطى مصيبتها ...هي تعرفها جيدا، وتوقعت أن تجبر موسى على تحمل ذنبه في حق المسكينة ...أمك مالطية و تخيلت أنها ستكون أكثر انفتاحا و موضوعية، لكن ما حدث ذلك المساء خالف كل توقعاتي وقفت كاترينة من مكانها ...أشارت إلى الباب ...ثم طردتنا ...طردتنا !! قائلة اذهبا انظرا من أين أتيتما بهذا الحرام، ولا تحاولا إلصاق التهم بابني موسى هو بريء من تهمتكما.

أذكر أن سعاد قاطعتها قبل أن تتم جملتها: أهو ملاك ؟!! بل شيطان في ثوب ملاك ...لكن الله سينتقم لي... تذكري و ذكري الشيطان الذي خرج من رحمك بهذا، لم يبق لسعاد حل آخر و ما كانت لتجرؤ و تخبر أمين بما حل بها، فاختارت الانتحار...اختارت نهايتها وصنعت بحجم حب كبير قدمته للشخص الخطأ، حبلا طويلا لفته على شجرة الليمون وسط البيت ...ولفت آخره على عنقها ثم تأرجحت كما تأرجح كل ما حلمت به بين الخيبة و الندم و الظلم ...كل هذا الوزر حملته سعاد معها و رحلت ...وهكذا لم يبق لأمين أحد، لم أستطع إخفاء القصة عنه أكثر من ذلك... و لما أخبرته حملني ذنب كل ما حدث و قطع علاقته بي ...لم أدر أن كاترينة كانت قاسية القلب أو ربما لا يمكنني الحكم فحبها لابنها كان أكبر من كل شيء لتتبعه إلى الجحيم لو أراد ذلك ...أنبت نفسي أياما طويلة ليتني لم أصحبها إلى كاترينة فلولا هذا ما حصل كل ما حصل...لكنني في الأخير أحاول إقناع نفسي أن ماحدث هو قدرها الذي لا مفر منه...

-تكسرت السيجارة وسط المطفأة-

أرجح أن كاترينة خشيت أن تخبركما بهذا، لأن الشعور بالذنب يلتف حول رقبتها كالحبل الذي التف حول رقبة سعاد...لابد أن صراخي وأنيني لازال يتردد في كوابيسها ...

- أرجوك يا صفوة توقفي ...لا أريد الاستماع ...-باكية-

-بل ستسمعين ...يكفيكم تظاهرا بالمثالية، يكفيكم محاولة إقناع أنفسكم والناس بأنكم أنصاف بشر وأنصاف ملائكة يكفي هذا.أمين الطلياني لم يفعل شيئا لموسى ...لكن موسى فعل الكثير و استكثر علينا أن نعيش سعيدين معا، و بأبشع الطرق قام بتخريب حياتنا ...حتى أنه استغل مرض أمي وحاجتي الماسة للمال، فساوم مساعدته لي في تغطية تكاليف عمليتها بقبول عرضه للزواج بي.

-تشعل سيجارة أخرى-

وافقت فلم أكن أملك عملا أو مصدر رزق قد أستخدمه كضمان لأخذ قرض من البنك ...لكنني استغليت الوضع واشترطت عليه أن أنتقل إلى الجزائر وأواصل تعليمي بالمعهد العالي للموسيقى. وطلبت أن يغطي كل مصاريفي هناك أين تعرفت على الجازية.

وافق على الفور، وأجريت العملية لأمي ...لم تكمل شهرا بعدها ثم توفيت ...وكما قال ألباتشينو (حتى إذا تناولت طعاما صحيا، ومارست الرياضة بانتظام، وامتنعت عن التدخين، فستموت بصحة جيدة)الموت مقدر، أمي كانت ستموت سواء إن بعت نفسي لموسى أم لا...كجارية في سوق النخاسة وجدت نفسي أمة بين يديه ...

حزن أمين لأجلي و شعر أنه المذنب في كل ما حل بي ...تماما كما حزنت و اعتقدت أنني السبب في كل ما حل به ...أنا من جعله يتمخض و يلد الطلياني الذي في جوفه، فيحيد عن الطريق المعبدة، لينتهج طرق الشعاب الوعرة لعله أدرك أنني رحت ضحية حرب لا سبب واضح لها بينه و بين موسى و الظروف أقحمتني غصبا عني فيها ...لا تعتقدي أن حياة المافيا سهلة عليه، ليست سهلة – تنفث غيمة دخان ضبابية مرة أخرى- ليس من السهل أن تحولي كل من يحيطون بك إلى أعداء ...وكل من يفعل لا شك في أنه فعل ذلك انتقاما.إن لم يكن من فرد معين بذاته فهو من المجتمع، أو ربما من نفسه التي خانته يوما ما وخذلته بضعفها وقلة حيلتها في أسوأ الظروف... أمام الفقر وقلة الحيلة...

أذكر أنه اتصل بي بعد كل ذلك ...طلب مقابلتي ودون وعي وافقت، احتجت حقا لمقابلته ...كنت في حاجة إلى عطف حقيقي منه ولم أكن أكترث حقا وأهتم لمنبع ذلك العطف، إن كان أمين أو الطلياني ...لا يهم!!

تقابلنا و أقنعني أن أفك أسري و أنفصل عن موسى، مادامت التي قمت برهن حياتي لأجلها قد عادت إلى بارئها فما فائدة أن أواصل دور جارية في سوق النخاسة ..هكذا كان يرددها أمين ...أخبرني أني لم أفارق قلبه يوما ...ثم رفع راحة يده ووضعها على صدره قائلا: إن هذا هو المكان الذي يجدر أن أكون فيه...كان محقا ذلك هو المكان الذي يجدر أن أكون فيه، ذلك هو المكان الذي أشتهي أن أنزوي داخله كلما ظلمتني الظروف، ذلك هو المكان الذي اعتبرته مسكني منذ كنت طائشة مراهقة ...وظننت أنه حان الوقت لأعود إلى بيتي ووطني ...طلبت منه أن يتريث ويدعني أفاتح موسى في الموضوع أولا، وانصاع لإرادتي تاركا إياي على راحتي.

-تطفئ سيجارتها وتضغط عليها مطولا داخل المطفأة...تنسل بضع عبرات من جفونها-لم أملك كثيرا من الصبر فتوجهت إلى بيتكم سريعا، فتحت كاترينة الباب ...وجدت أخاك كعادته يجلس قرب النافورة، حاملا كتاب قانو ن بين يديه،لطالما ساعدته قراءة تلك الكتب على استغلال ثغرات القانون والسفسطة وتحويل الضحية إلى مجرم والمجرم إلى بريء...وبكل فخر يأتي ويروي لي بطولاته في التحايل وإنقاذ مجرم من قبضة القانون...

رحب بي بلطف و طلب مني الجلوس قربه ...خفت كثيرا من غضبه، و من ردة فعله و من إيقاظ شيء فظيع يتلبسه...بقيت أقلب وجهي بين أركان الدار أتأمل زهور الإيريس، التي تقدسها كاترينة و تعتني بها جيدا، اقترب مني و أمسك ذقني وثبت وجهي قبالة وجهه ثم نظر إلى عيني مباشرة و سألني:ما بك؟

كانت تلك النظرة كفيلة لتجعلني أرى وهج عيون ذلك الوحش، وربما قد تمكن من شم عطر رجالي آخر لا يشبه عطره، لكنه يعرفه جيدا ...استجمعت قواي داخلي و تذكرت كلام أمين و اعتقدت أنه من اللازم أن أحسم الأمر الآن بالذات ...استفرغت كل شيء مباشرة في وجهه، أفلت ذقني ثم لطمني بعنف ...أتت كاترينة مسرعة على وقع صرختي و صوت الصفعة، انتفض من مكانه و جرني إلى غرفته، غاضبا ناقما ...لم أتمكن من الانفلات من بين يديه أدركت حينها أنه ما كان يجب أن أخبره بالأمر، كما أدركت أن مكروها سيحل بي نلت نصيبي من الضرب و السب، ولم تفعل كاترينة شيئا حينها أمام صياحي و استجدائي للنجدة سوى ضربات متتالية على الباب و توسلات يائسة لابنها ...هدأ فجأة ...حاولت التملص منه ...زحفا إلى الباب المغلّق علينا ...وقف ومشى متثاقل الخطى منهكا من ضربي و لكمي و ركلي وشتمي... شدني إليه، وردد: ستكونين له يا فاجرة...ولكنك لي قبل كل ذلك.

لن أخوض أكثر يا ميسون ولعلك فهمت فعلة أخيك الشنيعة بي، أفهمت؟ أم أنك تخشين أن يكون الذي ببالك صحيحا؟ سأفهمك إذن! تمادى وقام بالاعتداء علي وضع راحة يده على فمي ...متجاهلا وجود أمه على عتبة الباب وسمح لوحشه البشري بالتمادي أكثر_تسحب نفسا عميقا _لم أخرج من بيتكم إلا على حمالة إسعاف ...ربما هذا ما كان بمقدور كاترينة القيام، الاتصال بالإسعاف...هل اقتنعت الآن وفهمت من الأجدر بلقب الطلياني؟

هل تكفيك كل هذه القصص لتتجاوزي خطيئة أنني لم أقدم لكم عزاء في موت أخيكم موسى – بنبرة غاضبة-أو خطيئة ارتباطي بالطلياني؟ هل حقا واجب عليّ أن أحتفظ بحقيقة موسى كي لا أشوه سيرته و قد قضى نحبه؟أهو حقا واجب كما تعتقد كاترينة، أم أنه جميل مني ...كي أحفظ ماء وجهه، أمام أختيه و أنا أعلم بل متيقنة في قرارة نفسي أن موسى لا يستحق كل هذا المجد ...نذل، حقير، متكبر، مغرور هذا الموسى ...هكذا هو مجرد من أناقته و ماله وديبلومه و مثاليته وأصوله الهجينة ...تبا لكل هذه الأشياء التي بإمكانها أن تداري روحه المدخنة المغبرة ودناءته، فلا يستطيع الإنسان منا جزم هوية هذا الكيان الحقيقية إن كانت خيرا أم شرا ...تبا لكاترينة التي دافعت عن كل هذا... -ترتشف من كوب الكابوتشينو-أفهمت الآن؟ يحق لي أن أعيش مع الشخص الذي أريد وأختار دون أن يحاسبني أحد...

تقاذفتني الأفكار والصدمة تلو الصدمة والتساؤلات وهي لازالت تسرد على مسامعي وقائع احترت كيف لم أستشعر حدوثها ...أين كنت؟ أ هي تكلمني حقا عن عائلتي؟ أم أنه كابوس عابر من الواضح أنه ليس كابوسا فكل شيء هنا يبدو واقعيا ...تكذب، إذن أهي تكذب ولم قد تفعل؟

-لم لم تقدمي شكوى في المحكمة؟
-سحبت نفسا عميقا من سيجارتها، حتى برزت عظمتي وجنتيها المرتفعتين كأنها تتأكد إن كانت قد امتصت جميع الأرواح التي سكنت تلك السيجارة لتنفثها أخيرا لتتبدد مع الهواء-

لم يترك لي القدر وقتا لذلك-ضحكة مستهزئة-

آآآه من سخرية القدر، أخذ الموت موسى، في اليوم التالي من الحادثة...لما علم أمين أنني بالمشفى جن جنونه، أتى للاطمئنان عليّ ...كان ثائرا من الغضب، ترجيته، واستحلفته ألا يفعل شيئا متهورا إلى أن يحين موعد خروجي...لم أخبره بالفصل الأكثر قذارة من حادثتي مع موسى!! لم أجرؤ كأنني أحمل عارا لم أكن المذنبة فيه ...كانت القطرة التي أفاضت الكأس بالنسبة لأمين، لم يجد سبيلا لاستفزاز موسى والثأر منه والانتقام لعرضه الذي قام بتدنيسه أفضل من عائلته وأخواته البنات، لم ينس أمين يوما ما ألحقه موسى به من أذى، وما ألحقه بسعاد، فقام باختيار عفاف عشوائيا ورغم أنه طلب خطبتها فقط! محاولا بذلك كسر شوكة موسى، أظن أن ضميره ألح عليه أن عفاف

لم يكن لها ذنب في كل هذه الدوامة...قام أمين بضرب عفاف انتقاما لي يومها و لابد أنه كان في قمة غضبه ...أعترف أنني لطالما كنت السبب في كل شيء ...دون رغبة مني في ذلك، لم يدافع عنها أهل الحومة فموسى كان بارونا في ثوب محام.ظالما في ثوب مدافع عن الحقوق، مسفسط لا يفهم الحق معه من الباطل ...لكن أهل الحومة عرفوه جيدا مجردا من مثاليته، كان مربعا جدا كمسخ! كمغني طلب منه أن يغني أكابيلا دون مثاليات الموسيقى ...كان بالنسبة لهم واضحا جدا لدرجة أنهم لم يحملوا أنفسهم عناء الدفاع عنه، أو عن أخته أو أي شيء يخصه حينها...!! والآن أ لازلت تظنين أنه لا يستحق الموت ؟! الطلياني لم يكتف بموته فظل يلاحقكم و يحاول الضغط على نفسية كاترينا و ضميرها ...و موسى لم يكتف بموته و ظل يلاحقني في كوابيسي و أحلام اليقظة ...شاحب اللون مغبر البنطال و القميص ...دامي الصدر، رغم أنه كان يبدو ضبابيا إلا أن تقطيبة الغضب كانت واضحة على وجهه مخيفة ومهددة ...حتى موته لم يمنعه من إقلاق راحتي بعد أن جمعني القدر بأمين مرة ثانية ...هذا كل ما لدي!! ...أمين ينتظرني بالخارج، على فكرة كان سيخبرك بكل شيء بنفسه، وكان يرغب في الاعتذار من عفاف بعد أن هدأت نفسه أخيرا، وبعد أن قررنا قلب الصفحة ومغادرة تونس-مطت شفاهها-لكنكم غادرتم بلا سابق أنذرا! ...العالم صغير جدا، جمعنا مرة أخرى وقدر أن تسمعي اعتذار الطلياني مني أنا ...كما أنني أعتذر نيابة عن كل هذه الظروف !!

وضعت فنجان الكابوتشينو برفق ...تنهدت بعمق، كأنها الآن فقط نفضت حقيقة أخي موسى من على عاتقها، وتخلصت من بوتقة الندم التي كانت تجثم على صدرها، بعد أن حملتها أنا على أكتافي، حملت حقيبته يدها، عدلت ياقة قميصها، زمت شفاهها و قطبت جبينها و غمرتني بنظرة شفقة و سخرية معا! رفعت راحة يدها فرقت أصابعها البيضاء النحيلة ثم حركتها كإشارة وداع ...وقفت و بخطى ثابتة مرت على طاولة الجازبة و يوسف ودعتهما ثم تلاشت وراء باب المقهى الزجاجي...فجأة... تملكني الخواء، كأن الحقائق الجميلة و السيئة معا اتفقت أن تفارق عقلي ليبقى مترنحا بين اللاشيء والشيء...سوى جملة واحدة عالقة بعد حديثها الطويل كمغني طلب منه أداء أكابيلا دون مثاليات الموسيقى، كأنها أعادت صياغة الجملة المكتوبة على ذلك الملصق الكبير - أكابيلا صوت عار حزين مخيف تملؤه حشرجة الزيف- لا شك في أنها الحقيقة الوحيدة التي تصف كل ما آلت إليه حياتي، أم و أخ لطالما كانا مثاليين...

-أتسمحين؟ -وقف سيف أمام الطاولة-

- تفضل!

-لا تلومي كاترينا و لا تلومي موسى و لا نفسك ولا أي إنسان على وجه الأرض، لا أحد منا اختار حياته و محيطه، و كل من أخطأ بحق الناس فقد أخطأ بحق نفسه أولا، وسيأتي ذلك اليوم الذي

سيتحمل فيه نتيجة أخطائه عاجلا أم آجلا، موسى نال نصيبه من العقاب، و كاترينة دفعت ثمن سكوتها و فقدت ابنها ...ولابد أنها لازلت تتعذب يوما بعد يوم و لا يوجد عذاب كعذاب الضمير...

- وما الذي يفترض أن أفعله بعد سماع كل هذا؟

-أن تريحي نفسك من التفكير والتساؤلات ...ولا بأس إن تركت مجالا لدموعك الحبيسة.

- لا أجد وصفا دقيقا لأخبرك ما الذي أشعر به في داخلي.

- مرآة نظيفة براقة صافية...وفجأة امتلأت بالرضوض و التشققات...

- هو كذلك حقا...

-نذهب؟

- أجل نذهب.

على الطاولة المقابلة وسط دخان السجائر، يدندنان معا أغنية من أغنيات المقهى العابرة:

-(قولوا لشهلة العياني لي غرامها بكاني ....الولف كيف

ساهل والفراق ماقدرت عنو...الولف كيف ساهل

والفراق ماقدرت عنو....)

يضحكان بجنون ...يبدو أن أمر الزمان و المكان قد اختلط عليهما فضاعا بين دوائر دوامة عادت بهما ثماني سنوات إلى الخلف، هذا أول لقاء جمعهما على مسافة قريبة جدا لا يفصلهما إلا طاولة، و كوبين من عصير التوت الطبيعي ومطفأة سجائر و كوبا زجاجيا طويلا يحوي القليل من الماء تنام على حافته ياسمينة...

-متى كانت آخر مرة كنا فيها بهذا القرب؟

توقفت الجازية عن الضحك لما أتى سؤال يوسف ليعود بها إلى تلك النقطة، أين فقدت كل أسباب محتملة لتتشبث بالحياة، لا يجب أن نكون موتى كي لا نكون أحياء قد نعيش زمنا طويلا بقلب خاو فنحتسب أمواتا ...آخر مرة جمعتهم على بعد بضع أمتار لما نزلت تجر فستانا أبيضا من سيارة BMW، تساق إلى رجل يشبهها في عرقها وثقافتها لكنه لا يشبه يوسف ....

- منذ ثماني سنوات ...مضى وقت طويل أليس كذلك؟!

-لا أرى أي خاتم على أصابعك ...لم تتركينها عارية ؟!

- تركت زوجي منذ شهر ...لكننا لم نبدأ في إجراءات الطلاق بعد!

-أه ...ولم؟

- زير، سكير، مقامر، أ لا يكفي كل هذا ؟!

-بلى يكفي وربما يزيد عن حده ...هه يا للسخرية

- هه...سخرية القدر أليس كذلك؟ دعنا من كل هذا واتركني أستمتع بهذه الدقائق، لعل الحياة لن تلين لأجلي مجددا!! عادا لإتمام حديث بقي معلقا منذ زمن، بقيت الكلمات كما هي ولم يغيرها الوقت، بقيت المشاعر كما هي و لم تكتسب تجاعيد الكهولة بعد، لعله أول لقاء لهما على صفحة بيضاء لحياة جديدة قد تجمعهما معا مجددا ...كل شيء جائز من يدري ؟!

قيل أن المجهول لا يومئ عبثا، ولا يعرف المزاح، المجهول هو القدر و لغة القدر مميتة

نعود أدراجنا إلى البيت تبدأ قطرات المطر بالنزول، و تنساب بلطف على زجاج السيارة، أشغل ذراع التنظيف و أشغل الأضواء الأمامية فالمساء قد حل، و الشمس غابت دون أن تحل محلها النجوم أو القمر، هذا بسبب السحب التي لم تزر سماءنا منذ أيام ...ألتفت إلى ميسون ...متجمدة كأنها تملك زرا لإيقاف الحركة أو أحد ما قام بكبسه، لم أشأ بتر طقس شرودها لكنني حاولت كسر الصمت الذي أصبح مزعجا أفتح الراديو...يبدو أن فضولي لمعرفة ما دار بينها وبين صفوة يضيق نفسي و يدفعني دفعا للكلام

...سخيف!! إحساس آخر بالسخافة ...ما دخلي أنا ما الذي جعلني حقا أدبر هذا اللقاء لهما؟ اطلاعي على ما يجول بخاطرها و معرفتي لن تزعجها لا أظنها سببا كافيا ...لا أدري ما الذي جعلني حقا أرتب لكل هذا، لكن الشيء اليقين أنها كانت ستعرف حقيقة حادثة أخيها بطريقة أو بأخرى وهذا هو الصواب -أحاول إقناع نفسي-تميل ميسون برأسها ليلتصق بزجاج النافذة تنفلت خصلة على جبينها و عينها لكنها لا تهتم ...أرفع يدي ناحيتها و أزيحها ...فلا تهتم!!

-أكون فضوليا إذا سألت عن لقائك بصفوة !؟ تصمت...
- لا ...ليس كذلك، لكن لا رغبة لي في سرد أشياء جد سيئة تعلم بحقيقتها من قبل، أليس كذلك!؟

-على راحتك ...

أنهي الحوار وأواصل الصمت، لعلها تحتاج إلى وقت تستوعب فيه ما خفي عنها من قبل ...

- أظن أنه من الصواب تقبل الواقع كما هو أليس كذلك يا سيف؟

-أهاه ...صحيح

- والآن يجب ألا ألوم أمي وموسى على عملهما الشنيع، وأنانيتهما التي فاقت الحدود، كما لا يجب أن ألومهما على تلك المثالية الزائفة المصطنعة وألا أشعر بالخزي لأنني أمتلك نفس تلك الجينات...

أحك رأسي مفكرا بما أجيب ...

-أظن أنه يجب عليك ترك المياه تأخذ مجراها العادي فاللوم في هذه الحالة لن يغير شيئا...

- أجد هذا كله أسوأ من الجاثوم الذي كاد يقتلني ذاك اليوم، ليته اصطحبني معه قبل سماع هذا...
توترت قليلا وتذكرت أنه ينبغي علي إخبارها بقصتي التي لا تصدق، بعثرت جملتها الأخيرة تركيزي فخشيت من حادث سير تحت هذا المطر.

-أركن السيارة قليلا-

- هل من خطب!!

-دوار خفيف فقط ...نرتاح قليلا وسأكون على ما يرام ...

- حسن... -توردت وجنتها-أنا لا أجيد السياقة.

-لا بأس ...ليس أمرا صعبا نحجز لك في مدرسة تعليم سياقة وتتعلمين...

- تعيرني سيارتك !؟

-لا لن أعيرك سيارتي ...انسي الأمر...

قطبت جبينها

-أمازحك فقط ...لكن أين سيارة موسى ؟!

- أمي قامت بالتصرف بكل ما يخصه وقدمته إلى جمعيتين خيريتين.

-جيد! أظن أنني بخير لنواصل الطريق إذن ...تمتد خيوط وميض البرق كأغصان نبات مشع –الجو يشي بأن أمطارا غزيرة ستنزل –رددت ميسو ن- يصبح الوميض أكثر قوة يظهر ثم يختفي كضوء نيون مضطرب، فأكاد لا أرى شيئا على الطريق لذا أخفف السرعة جدا و أمشي بحذر أكثر ....يقصف الرعد بصوت مرعب يصم الآذان ويومض البرق مجددا و مازال رذاذ المطر خفيفا ..كأن رجلا يقف منتصف الطريق في هذا الجو !!

-ما باله لم يقف وسط الطريق ؟!أحاول أن أشير له كي يبتعد اقتربنا منه...لا تبدو ملامحه واضحة جدا ..رجل طويل بمنكبين عريضين ...لما أقترب أكثر يظهر دم على قميصه الأبيض ...دم ...يبدو أنه يعاني من جرح بليغ وسط صدره لكن شيء ما داخلي يشعرني أن هذا الشخص مألوف كأنني أعرفه...بنطاله الأسود مغبر كثيرا، لابد أنه انخرط في شجار ما، و يريد إيقاف سيارة !!

ألتفت إلى ميسون أجدها، بيدين مرتجفتين تغلق فمها كأنها تمنع الفجيعة من مغادرة فاهها...

-ميسون !!

- (ترفع إصبعها وتشير إلى ذلك الغريب) ...موسى ...موسى!! أضغط على المكابح ... رعشة غريبة تسري في كل جسدي، يومض البرق ثانية ويقصف الرعد مجددا ...لقد اختفى !!

كأنه لم يكن موجودا، أو كأنني أتوهم فقط لكن لا يعقل أن نتوهم أنا وميسون نفس الشيء !! ...أيعقل أن يكون شبح موسى !! طبعا ليست المرة الأولى التي أرى فيها شبح، لكنني شعرت برعب يسري داخلي، خفت حقا كأن شيئا فظيعا جدا يشارف على الوقوع ...ثم ينزل المطر غزيرا جدا كأن نهرا ينسكب من السماء نحو الأرض...

-ميسون اهدئي ...أنت إلى جانبي ...لعله يكون جني حوادث مرور أراد إرعابنا...سمعت عن هذا كثيرا

- أتعتقد حقا أنها طريقة جيدة لتهدئتي !؟

- أه صحيح أظنني أخفتك أكثر.

- رباه، أتمنى أن نعود إلى البيت بسلام ...كان كل هذا الشهر غريبا وهذا أغرب وأفظع يوم فيه...

أومئ، وأتوقع أنها تقصد بغريب ذلك الجاثوم الذي ينام داخلي

-ننتظر قليلا توقف المطر، تنخفض قوة وقعه على غطاء السيارة وزجاجها، ثم نواصل طريقنا.

تستغرق ميسون في صمتها، ألتفت إليها من حين إلى آخر ليطمئن قلبي، لابد أنها تكتم رعبها وتشعر مثلي باقتراب أشياء غريبة غير مفهومة، تشبك أصابعها كأنها تحاول إيقاف الارتجاف مجبرة نفسها على استيعاب ما يحدث...

وصلنا أخيرا، صوت قطرات المياه التي تجمعت على حافة القرميد، متخذة إياه كمجرى نحو أنبوب صغير فتنزل كشلال صغير جدا، ينسكب بعضه على إصيصات النباتات المصطفة أمام الحائط، وبعضه الآخر ينزل على الأرض مصدرا صوتا يبدد الهدوء أمام بيتنا أخرج كومة المفاتيح المعلقة على حزامي أحاول إيجاد مفتاح الباب ...

ندخل إلى الداخل معا ...تمر ميسون ملقية التحية لكن دون تقبيل كاترينة كما اعتادت أن تفعل، يبدو أنها غاضبة من أمها ..ألقي التحية و أدخل إلى غرفتي ...أشعر بتعب شديد فأستلقي دون أن أبدل ثيابي ... ترى لم أنا من بين كل هؤلاء البشر، لم أنا و ميسون !!

لم كل هذه الأحداث المتسارعة والغريبة كقصص الفنتازيا!...عاد المطر إلى الهطول ...أتعود على صوته تدريجيا ليصبح جزءا من هدوئي ...فجأة يظهر ظل وراء زجاج الشرفة المغطى بمياه المطر المنزلق، أبتلع ريقي و أكتم أنفاسي كانت حركة لا إرادية بحيث لم أتعمد حقا فعل ذلك ...أيعقل أن

يكون شبح موسى ...لكن ما الذي يريده مني أنا بالذات، أستجمع قواي، أقف وأتجه نحو الشرفة، أفتح الزجاج...

-بببووووه....

- آآه تبا لك جوناس ...لم تفعل بي هذا في كل مرة!!

-ولم أغلقت عليّ زجاج الشرفة ...نال مني المطر وبلّلني.

أحك رأسي:حقا!! لا يظهر عليك ذلك،تبدو كما أنت!

-ولازلت كما أنت يا صاح تصدق أي شيء يقال لك!

-حدث أمر غريب جدا هذا اليوم ...

-ما هو؟

-أظن أن أخ ميسون الذي قتل قد تحول إلى شبح أيضا ...

...كان سيئا جدا أثناء حياته البشرية أنت تعلم ذلك تكلمنا عن هذا من قبل

- يا إلهي هذا يعني أنه تحول إلى شبح سيء و ربما قاتل ...لم تكن على علاقة وطيدة به من قبل، و ميسون هي أخته الصغرى و على حد علمي لم تكن على علم بحياته الغريبة تلك...لكن على حد علمي هذه النوعية من الأشباح إذا افترضنا أنه قد تحول إلى شبح شرير تظهر لأهلها و معارفها كنوع من التهديد، هي لا تمتلك ميزة الكلام مثلي مثل بعض الأشباح الطيبة ...حتى أن المكان الذي تأتي منه و تعود إليه يظل مجهولا، لكن ظهورها للبشر في الغالب إما للانتقام أو للتهديد أو كنذير شؤم...

- وبعضها يتسبب في حوادث سير على الطرقات الجبلية صحيح؟

-لا، تلك قبائل جن تسكن بين أشجار الغابات ...هم أسوأ من الأشباح الشريرة بقليل ...فهم يقتلون بلا سبب واضح...

- إذن ما الذي يريده موسى من ميسون؟

-ربما، يطلب منك أن تبتعد عنها ...

- إما ينتقمون وإما ينذرون باقتراب شيء سيء ...ويطلب مني الابتعاد عن أخته ...لكنه لم يطلب مني ذلك؟ ...لأنني سأتحول إلى جاثوم وربما أتسبب في مقتلها!

-رباه !!...لم تخبرها بعد أليس كذلك؟

- لا لم تسنح لي الفرصة فالأحداث أتت متسارعة بشكل رهيب والتخطيط لتدبير لقاء بصفوة كتمهيد لإخبار ميسون بالحقيقة، أظن أنه أمال الموازين لكنه لم يكن صوابا...

-لا ...فحدسي يخبرني أنه صواب!

- حسن ...بما أنك شبح فمعنى ذلك أنه بمقدورك الاتصال بموسى وفهم شيء ما منه!!

-لا...غير صحيح ...لا يمكن وربما يا سيف ...يشمل قدوم موسى الإنذار بالشؤم والتهديد معا دون أن يقصدك أنت، ربما هو يحاول إخبار ميسون أنه سيلحق الأذى بصفوة والطلياني فهما أصبحا خاطبين بيد أنه لم يرد ذلك أثناء حياته البشرية....

-صحيح...رأي صواب !!

- أكابيلا ثم جاثوم ثم أشباح ...سيدة اللقلق ...أيبدو كل هذا طبيعيا؟! رغم أن الحياة تبدو أهدأ وأبسط من ذلك ...

-صحيح ...هي فقط تبدو كذلك....

ردد جوناس هذا ...ثم أقلع من الشرفة و حلق كطائر سنونو ...هذه أول مرة أراه فيها يحلق، لأني اعتدت رؤيته يعود إلى العدم الذي يظهر منه، محاولا إرعابي كطقس يمارسه في كل لقاء...مؤخرا أصبحت ألوان جوناس أوضح بكثير وهذا مؤشر سيء ...سيء جدا...أراقبه يبتعد كفراشة بيضاء مضيئة تبدد العتمة بنور خافت جدا ...يواصل ابتعاده على نحو خط مستقيم ثم يتصاغر حجمه شيئا فشيئا إلى أن يبتلعه الأفق ...أعود إلى فراشي وأبدل ثيابي و أرتدي ثيابا خفيفة ...أستلقي مرة أخرى على سريري ألتف بغطائي محاولا إفراغ رأسي من أي أفكار و أستغرق في نوم عميق...

***

كصفحة معتمة، كليل دون أي كوابيس أو أحلام مرت ثمان ساعات وعقارب المنبه تشير إلى الثامنة صباحا ...أحمل هاتفي وأبحث عن رقم الجازية ...بعد ثلاث رنات ...

- ألو

- صباح الخير...

-صباح النور سيف ...هل أنت بخير؟!

-تسأل مستغربة اتصالي مبكرا-

- بخير ...أريد أن أطلب منك أمرا مهما إذا سمحت...

-نعم...!!!

- أرجو أن تتصلي بصفوة، تأكدي إذا ما كانت بخير...

-وفيم يهمك هذا...أو هل حدث شيء؟

- أرجو أن تفعلي ...الأمر مهم حقا ... مهم

-طيب!!...

أغلق الخط، وأتوجه إلى الحمام للاغتسال، غريب !! لا ضجيج ولا أصوات، ولا همس ولا طرق، كأن البيت خال ...

أتفقد المطبخ لا أحد! أتجه لأتفقد الصالون ...جوناس !! أقول بصوت خافت جدا قريب إلى الهمس

- تكلم على راحتك لا أحد بالبيت...

تعجبت ولم أستطع ترتيب الكلمات لتكوين جملة مفيدة ...لكن جوناس أخذ في الحديث، راح يقول: كنت فظيعا جدا، و لم تكن لدي القوة الكافية لأبعدك عن ميسون ...كانت تقاوم وتصرخ بشدة، تحاول أن تنقذ نفسها من زوبعة، من شيء جلل، كم كنت مرعبا...وقفت فوق صدرها، كانت تحاول ردعك، لكنها جعلت غضبك يشتد كلما استمرت في المقاومة، وفي الحقيقة سمحت لنفسي أن أتلبسها كي أزيدها قوة ... لكن ما من جدوى، قوتك كانت أكبر، إذ بضربة واحدة جعلتها تحلق من سريرها نحو الجدار في مشهد اعتدته أنا، لكن بالنسبة لكل من في البيت كان خارقا، غير طبيعي... اصطدم رأسها بالحائط، و أظن أن مكروها قد حل بها، الآن، جميع أهلك بالمستشفى

- جميعهم إلا أنا؟ ألم يأت أحد لتفقدي؟!

لا بد أن أمي أتت لتفقدي على الأقل لمساعدتها في نقل ميسون إلى المشفى أليس كذلك؟!

بلى! أمك فعلت، لكن بصراحة يا سيف ...لم يكن جسدك موجودا، بحثت عنك في كل الغرف، وفي المطبخ والحمام وفي الخارج لكنك لم تكن موجودا !! لذا قررت انتظار دخول جسدك في الصالون أما روحك فعلمت أنها ستعود إليك فور عودتك إلى وعيك ...عاد جسدك لما كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية صباحا ...ولما انقشعت السحب وأفسحت مجالا لنور القمر،استلقيت على سريرك ونمت بوداعة ...وعدت أنا إلى الصالون بعد أن علمت أن الجلوس على هذه الأريكة له هيبة خاصة! لكن في الحقيقة جلست هنا لمسح المكان ومراقبته أكثر...
أتفقد هاتفي، تذكرت أنني قبل إجراء المكالمة مع الجازية رأيت إشارة لاتصالات لم يتم الرد عليها لكنني لم آبه ففي العادة، لا أهتم بذلك كثيرا قد تكون اتصالات من أصدقاء، أو اتصالات من يوسف ...أفتح سجل الاتصالات (118 مكالمة من أمي)

- رباه ...رباه ...رباه إنها لعنة، إنها لعنة، ولن أنج هذه المرة.

-سيف ...ميسون تغط في غيبوبة الآن بسبب الضربة القوية على الجدار، وربما الرعب والخوف الذي تسببت فيهما لها ...قاوم ذلك الشر الذي يتصل بك وإياك أن تمارس الأكابيلا عليها محاولا القفز إليها ...ربما تؤول الأمور إلى الأسوأ... افهم أسوأ مما هي عليه الآن.

- سأحاول ...

أجثو على قدمي ...تغتالني الدموع كما لم تفعل من قبل، لا أحد هنا في وسعه أن يضمني، لذا سأطلب من الوسادة أن تضمني، و لأني أدري أنها لن تستجيب أضمها، و أكبت صوت صرخات متتالية داخل حضنها.

للحظة انتابني شعور أنني لا منتم إلى هذا العالم، ولا أشبه كل البشر، سجين حلم شرس،أسير غيبوبة غامضة...أو ربما أنا ابن زنى ملعون فمن غير المعقول أن أكون ابن أبوي، أنهض محاولا جمع أشلاء نفسي المتناثرة في عالم ما وراء الطبيعة، أرتدي ملابسي ثم أخرج. أتجه نحو مرآب السيارات، أركب سيارتي البيضاء، أدير المحرك وأخرجها منه ...أخرج هاتفي من جيب سترتي ثم أعاود الاتصال بأمي، قبل أن تكون على الخط أفكر أنه يجب أن أسألها أين أنتم؟ بدل في أي مشفى أنتم؟ وبم سأجيبها إذا سألت أين كنت البارحة؟ ...تعطل محرك سيارة صديقي في منطقة مقطوعة ...ستنتبه أن سيارتي كانت مركونة قرب سيارة أبي ال Renault ...هي غير موجودة فلابد أنهم استقلوها، بم سأجيب؟!

-ألو صباح الخير، أين أنتم؟

- صباح الخير، أين كنت البارحة اتصلت بك كثيرا لم لم ترد؟

-كان هاتفي على الوضع الصامت، لم أنتبه له حتى الصباح، سهرت في مكتب ياسين ...ياسين صديقي المحامي مكتبه في حينا على بعد أمتار من بيتنا -أوضح بطريقة غير مباشرة عدم استعمالي سيارتي-

- حدثت حادثة غريبة مع ميسون ...حادثة غير طبيعية أبدا و هي طريحة الآن في المستشفى، تغط في غيبوبة كما قال الطبيب ...لم يضربها أحد و لم تكن بالخارج لنقول أنها تعرضت لحادث حتى أننا لم نسمع أصواتا غريبة ...سوى صرخة مدوية ... وبعد ذلك لم نجد لك أثرا بالبيت، و أنت لم تجب عن اتصالاتي، لذا وقبل مجيئك بني أود أن أخبرك، أن أباك يضعك محل اتهام ...فدخولك مع البنت مساء لم يكن طبيعيا ...رغم أنني و كاترينة و عفاف استبعدنا الأمر كليا ...على أي حال تعال و سنتحدث بالموضوع ...

تغلق الخط...

ساعدني يا الله!!

كالتاريخ والأفكار، الأرواح تعيد نفسها...

تمسك تلك الأيادي بخوانقي مجددا، تكبل أطرافي، و أشعر بأنفاسي تتضاءل شيئا فشيئا، كأن مخدرا يسري في شراييني فيجعلها خاملة لا تستجيب لي، و لا حتى شفاهي تستجيب بطلب النجدة، إلا قلبي يتسارع نبضه كأنه يحاول إعلاء صوته فيتحول إلى قرع طبول، أحس بقلبي يتضخم، يحاول تمزيق ما يكسوه من لحم، انفتحت الفجوة السوداء مجددا، الفجوة اللعينة، أحاول إقناعي هذه المرة أن ما أراه مجرد كابوس وسينتهي...

يظهر وجه سيف من وسط دخان الفجوة السوداء ...ثم يتلاشى ببطء إلى أن يعود إلى قعر ذلك الثقب الأسود ...ثم تنبثق كتلة ضباب أخرى ويظهر منها شاب غريب ...يحدق بي أو ربما لم يكن يحدق بي بل من خلالي ...تاجه الموضوع أعلى رأسه جعله يبدو كروح عالقة في قناة صرف زمنية ما وانتهى بها هذا الثقب إلّي ...

أغمض عيني محاولة العودة إلى الواقع ...لكن صوت الهدوء يبدده صوت صفير رياح قوي، كأنني غادرت غرفتي و حلقت إلى قمة جبلية ما...

بعد تردد أعاود فتح عيني لأجدني واقفة في مرج شديد الاخضرار، مكان كأنه ساحة عراك بين رياح عاتية وأشعة شمس منكسرة، أقف بثبات أمام قبة كبيرة جدا تشكلت من قوالب حجرية باهتة اللون وضخمة، شبيهة بأهرامات مصر لكن شكلها المخروطي جعلني أوقن أنني لم أحلق إلى الجيزة بعد ...أرفع يدي ...أضعهما على وجهي. إنه حلم لكن كل شيء يبدو فيه واقعيا، الشمس والرياح والمبنى.

تحل العتمة مرة أخرى ولا شيء غير السواد ...يختفي صفير الرياح وذلك المرج الفسيح والمبنى الهرمي وضياء الشمس... يرتفع صوت موسيقى غريبة ...كأنها نوتات قادمة من عصر بعيد جدا، من أساطير عشتاروت، أفتح عيني، وهذه المرة لا أجد نفسي ...كأنني مجرد منظار يطل به شخص على زمن غابر، كأني اكتشاف، كأني لغز لا حل له، وكأن كل الذي أراه متاهة لا مخرج منها ... ربما وربما يكون كل هذا فلما تصنعه مخيلتي...

غرفة حجرية فسيحة جدا، تتوسطها امرأة طويلة القامة قمحية البشرة، ينسدل قماش أبيض حريري ناعم فيغطي صدرها، و يترك شيئا من بطنها، و يعاود الالتفاف فينزلق و يغطي خصرها وبقية جسدها ...أساور ذهبية كثيرة تزين يدها اليسرى و شكل رأس رجل فرعوني ذهبي معلق بسلسال طويل ينام على نهدها ...تتسلل النوتات الهادئة كلما وضعت أناملها على أوتار القيثار الذهبي الكبير أمامها ...بلغة غير لغتي ترتل كلمات واضحة و مفهومة جدا، كأنني لقنت هذا اللسان بالفطرة ...كل شيء ممكن في الأحلام!!

صوت روحي بلا قيثار

صوت القمر
صوت ايول
و فوليبيليس
صوت
عار حزين مخيف
تملؤه حشرجة الزيف....

إلى الجزء الثاني

أكابيلا بئر أحلامي التي لا تنضب

خولة حواسنية

خولة حواسنية

أكابيلا

ACAPELLA

روح ضائعة: أجلس طويلا أتأمل جسدي المتدلي من على شجرة الفلين الضخمة ... يبدو ككيس خاو يلهو به النسيم ... أما حبل الخيش الاصفر الغليظ لازال محكم الالتفاف حول رقبته ... اجتمعت الغربان و اصطفت على أغصان الشجرة بعد أن حامت طويلا معلنة الحداد في السماء تنظر الي و ترمقني بنظرات حادة كأنها بذلك تهددني و تضمن عدم عودتي إلى ذاك الوعاء ... مرت أيام طويلة ... لم يعد بحوزتي ما يمكن أن أحدد به الوقت.

مؤسسة المثقف للنشر والتوزيع
غرداية ماسيلي رقم 58 - حي 5 جويلية باتنة - الجزائر
email: elmouthakaf2@gmail.com
Tell: +213 664 718 656 | +213 675 497 384
Fax: +213 33 85 65 75

ISBN 978-9931-663-44-7